الفصل الثاني

تأملات في هجرة النبي ﷺ

obeikandl.com

obeikandl.com

(1)
بشائر النصر..
تحملها ذكرى الهجرة

في هذه الأيام الطيبة تهلّ علينا نسائم الهجرة النبوية المباركة تحمل معها أريج النصر لدين الله سبحانه، وتعيد ذكرى قيام هذا الدين الخالد، وميلاد تلك الأمة العظيمة خير أمة أخرجت للناس، نراها مع تتبع مراحل الدعوة النبوية وهي تنمو وتترعرع كالصبي الصغير، الذي يحبو حينًا ويتعثر آخر حتى استوى على عوده، وما زاده تعثُّره إلا قوة في بنيته، وخبرة بما يعترض ساحته، وعزمًا وتصميمًا على الوصول إلى غايته، فنهض واشتد فقام.

وقد بدأت هذه الأمة المباركة بنبي الله ﷺ وحده ومن حوله قلة من المؤمنين الصادقين المخلصين، فكانوا بحقٍّ خيرَ نواة لأعظم أمة وخيرَ دليلٍ على الله عز وجل وخير من دعا لهذا الدين. ومع تجدد ذكرى الهجرة ومجيئها كل عام يتجدد الأمل في قلوب المسلمين في شتى بقاع الأرض إذ يجمعهم النسب لهذه الأمة التي كتب الله لها الخلود والبقاء؛ لأنها حاملة الدين الخاتم ووعاء الرسالة العامة، وتستبشر مع حلول الذكرى تلك النفوس المكلومة والمجروحة من جسد أمتنا الواحد، وتشتاق إلى نصر

الله المؤزر، ذلك النصر الذي يعيد لها ما غمّ عنها من سالف ماضيها المشرق، إنها متلهفة لرؤيته موقنة بمجيئه وتحققه ولو بعد حين، لذا فهي تبغي من ربها نصرًا عامًّا بكل معانيه، إنها تتطلع للنصر على أعدائها من كل جنس ولون بعد أن اغتصبت أراضيها وانتهكت فيها الحرمات، بعد أن سالت في طرقها الدماء واستبيحت الأعراض، بعد أن سُرق العدل وغُيّبَ الميزان فانتشر الظلم وانتهبت الخيرات! نصرًا على المؤامرات التي تحاك ضدها، نصرًا على التحديات والمعوقات والحدود والحواجز، نصرًا على الفرقة والاختلاف والتناحر والخصام، على النفوس والأهواء والبغضاء والشحناء، على الفقر والجوع والجهل والأمراض، على الأثرة والأنانية وحب الذات. إنها تطلب نصرًا على اللذات المحرمة والشهوات المثبطة، نصرًا على الشيطان الرجيم وجنده وأتباعه من شياطين الإنس والجن؛ فهي تبغي من ربها ذلك النصر العظيم الذي يعيد الأمور إلى نصابها ويرجع إليها مكانتها وعزتها المستمدة من دين ربها، ويفسد على أعدائها مخططاتهم الخبيثة للإيقاع بها في فخاخهم المبثوثة هنا وهناك. فهل تنهض أمتنا من كبوتها لتصبح أشد وأقوى، وتصير أصحّ وأعلى؟

« لا تحزن إن الله معنا ».

يقول تعالى مذكّرًا نبينا محمدًا ﷺ بذكرى الهجرة وما سبقها من أذى وتمحيص وما لحقها من نصر وتأييد.. ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[1].

(1) (سورة الأنفال، الآية: 30).

أي واذكر يا محمد ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ وقد اجتمعوا للمشاورة في شأنك بدار الندوة ﴿لِيُثْبِتُوكَ ﴾ يوثقوك ويحبسوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ ﴾ كلهم قتلة رجل واحد ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ من مكة ﴿ويمكرون﴾ بك ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ﴾ بهم بتدبير أمرك بأن أوحى إليك ما دبروه وأمرك بالخروج ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ أعلمهم به[1].

الرحلة من البداية

ومع الهجرة نعيش الرحلة من البداية وكأننا نعاصرها، فلقد مرت الرسالة المحمدية والدعوة الإسلامية بمراحل حالكة ومواطن بالغة الصعوبة، إذ أوذي صاحب الرسالة وهو أفضل الخليقة وخير البشر وأحبهم إلى الخالق العظيم، وافتُرِيَ عليه ظلمًا وبهتانًا فقيل ساحر وشاعر ومجنون – فداه نفسي وأبي وأمي – ﷺ، وحيكت ضده المؤامرات وعقدت من أجل القضاء عليه المؤتمرات، وما دار الندوة عن تدبيرهم ببعيد، لكنه صبر فأيّده الله ونصره، وحسبك أن تقرأ قوله تعالى لتعرف ما نال نبيك في سبيل تبليغ دين الله لي ولك ولكل البشر حتى تصبح فردًا من أفراده تحمل همّه على عاتقك وتسعى لتطبيقه ونشره مهما كلفك، ولك في هذا الرسول العظيم الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة إذ كان له خير حامل، حتى أنه اضطر إلى الهجرة فرارًا بدعوته تلك، وبحثًا عن أرض خصبة تصلح

(1) (انظر تفسير الجلالين، سورة الأنفال، الآية: 30).

لزرعه ونمائه، وكان له بفضل الله ما أراد. قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]. قال ابن كثير: أي عام الهجرة لما همّ المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هاربًا، صحبه صديقه وصاحبه أبو بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه.

وبهذا أخرِج النبي ﷺ رغمًا عنه، أُخرِج من أحب البقاع إليه تاركًا خلفه مراتع صباه وذكريات شبابه، ومخلفًا وراءه أهله وذويه وأحبابه، لكن ذلك كله لم يفتّ في عضده بل زاده البلاء من الله قربًا وطهرًا، وأكسبه التمحيص قوة إيمانٍ وصبرًا.

ألا إن نصر الله قريب

وحين يرى النبي ﷺ من بعض أصحابه وهنًا وضعفًا، تتنزل عليه الآيات من الله تترى، تحمل معها دلائل البشرى لمن صبر مع حصول الفتنة وصدق بعد حلول البلوى، فيقول تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[2]. وتبين الآيات أن ذلك الابتلاء وإن اختلفت أشكاله وتنوعت

(1) (سورة التوبة، الآية: 40).

(2) (سورة العنكبوت، الآية: 1 – 3).

أسبابه إلا أنه باب للنصر وسبيل للرضا ورصيد من الأجر، وطريق للجنة، وقد قال رسول الله ﷺ لنا: «حُفت الجنة بالمكاره، وحفّت النار بالشهوات»[1].

فالابتلاء علامة الإيمان ودلالة عليه، والله تعالى يقول لافتًا الأنظار لذلك: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[2]. أي: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة» قبل أن تبتلوا وتختبروا وتمتحنوا كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم؛ ولهذا قال «ولمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء» وهي الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والنوائب، «وزلزلوا» خوفوا من الأعداء زلزالًا شديدًا، وامتحنوا امتحانًا عظيمًا كما جاء في الحديث الصحيح عن خباب بن الأرت – رضي الله عنه – قال: قلنا يا رسول الله ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا فقال: «إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه» ثم قال: «والله ليُتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تستعجلون»[3].

---

(1) (صحيح مسلم، كتاب الجنة، رقم الحديث: 2823).

(2) (سورة البقرة، الآية: 214).

(3) (تفسير ابن كثير ج1، ص571)

الداعية الأعظم.. والنبي القدوة

وهذه سنة الله في خلقه، إنها سنة الابتلاء والتمحيص، سنة البأساء والضراء، إذ يتردد الناس عامة وأهل الإسلام خاصة بين ساعات من الصحة والعافية، ومن القوة والضعف، والوهن والشدة، لكن الأسوة الحسنة لنا- معشر المسلمين - جميعًا رسول الله ﷺ وقد مرت عليه هو أيضًا في دعوته تلك الحال. كما أن طريق الدعوة شاقٌّ وطويل يستغرق عمر الإنسان كله ولا ينتهي، ولا بد من سلوكه كما سلكه الداعية الأعظم رسول الله ﷺ. فكم في الهجرة من دروس وعبر أكثر من أن تحصى، نرى فيها بريق الأمل، ويتسلل من ثناياها بصيص النور تطل معه بوادر النصر وإشراقاته.

ها هو التاريخ يعيد نفسه

فلئن أخرج بعضنا من دياره بالاحتلال والاضطهاد وغيرهما من أسباب الخروج، فقد أخرج رسول الله ﷺ وصحبه الكرام، ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾[1] عن ابن عباس رضي الله عنه: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق يعني محمدًا وأصحابه «إلا أن يقولوا ربنا الله» أي ما كان لهم إلى قومهم إساءة ولا كان لهم ذنب إلا أنهم وحَّدوا الله وعبدوه لا شريك له[2].

(1) (سورة الحج، الآية: 40).

(2) (تفسير ابن كثير ج5، ص434).

إنهم أخرجوا وأوذوا «فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا» فكان الفتح المبين وعادوا إلى ديارهم فاتحين منتصرين.

ولئن كان جزاء إخوتنا الذين يطالبون بأرضهم وبيوتهم ووطنهم الحبس في سجون المحتلين الغاشمين، ولئن أودع البعض وحبس في غياهب السجون بعيدًا عن أوطانهم وألقوا وغيبوا فيها دون محاكمة أو تحقيق بحجة مكافحة الإرهاب، وهم من يمارَس معهم الإرهاب بعينه بكل صوره القبيحة متمثلًا في التفنن في تعذيبهم وانتزاع الاعترافات والكلمات منهم تحت وطأته وتلفيق الاتهامات الظالمة لهم بلا دليل أو بينة، وحرق بيوتهم، ثم تركهم كسقط المتاع في ظلمة السجن التي اختلطت بظلمات الظلم وقسوة السجان كما نرى ونسمع في وسائل الإعلام، وما تطالعنا به من صور وما خفي فهو أعظم، فلئن حدث ذلك لهم؛ فقد سجن إخوانهم من المسلمين الأوائل بأيدي المشركين بل وبأيدي أهليهم وذويهم من غير المؤمنين، وحرموا الطعام والشراب ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[1]. فصبروا وثبتوا ففك الله أسرهم وجعل العاقبة لهم.

ولئن مرت الأمة وأبناؤها بمزيد من الأذى ممن يمكرون بها ويسيئون لنبيها الكريم ويلومون نسبها العظيم (الإسلام) ويحاولون تشويه صورته النقية، وطمس معالمه والهوية، فقد وجد هؤلاء في كل عصر ووقت، بل

(1) (سورة البروج، الآية: 8).

ووجد من ادّعى النبوة بعد ختامها، وتلك سنة الله إلى قيام الساعة ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]. فالصبر الصبر، والثبات الثبات، والجد الجد، والعمل العمل، ليتحقق النصر كما قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[2].

وإذا ما ادْلهمت بك الخطوب وكثرت من حولك المحن، وإذا ما اشتد أمامك الكرب وضاقت عليك السبل فأبشر بالفرج.. كما قال ﷺ: «.... وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا»[3].

(1) (سورة البقرة، الآية: 251).

(2) (سورة الحج، الآية: 40).

(3) (مسند أحمد، ومن مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس.. احفظ الله يحفظك، رقم الحديث: 2800، صححه الألباني، واللفظ لأحمد).

obeikandl.com

(2)
الهجرة من الكفر إلى الإيمان

حين أشرقت أنوار الرسالة المحمدية على مكة ومن حولها، وغمرَ سنَاها الآفاق والأرجاء، استضاءت بها الأفئدةُ واستنارت بها العقول، فهاجرت هي الأخرى إلى ربها من ظلام الكفر إلى نور الإيمان، ومن الظلمات إلى النور، ومن ظلم النفس إلى الإنصاف معها، هاجرت لتنشر فيما بعد ذلك النور العظيم والخير الفياض على العالم أجمع.

وإن الناظر والمتدبر في الهجرة النبوية يراها شملت هِجْراتٍ متعددة لا هجرة واحدة، ويرى فيها من العبر والفوائد الكثير، إذ ليست سيرة نبينا محمد ﷺ كغيرها من السير، وليست كتابًا يقرأ فحسب، وإنما هي منهج حياة وطريق عمل وأسلوب دعوة، وأسوة وقدوة، لذا كان لزامًا علينا دائمًا أن نتفكر ونتمعن في دروسها نستلهم منها العبر ونعلمها الأجيال، وقد قال تعالى لنا: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[1].

(1) (سورة الأحزاب، الآية: 21).

الهجرة ضربان.. ظاهرة وباطنة

قال العلقمي: والهجرة ضربان ظاهرة وباطنة، فالباطنة ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء والشيطان، والظاهرة الفرار بالدين من الفتن[1].

وقد كانت هجرة النبي ﷺ وهجرة أصحابه خير دليل على ذلك، إذ أنه - عليه الصلاة والسلام - نأى بهم عن الكفر فهجروه حتى لم يعد له مكان في قلوبهم بعد أن طهرها الله بالإسلام ومنّ عليهم بالهداية، وفي هذا يذكرهم الله تعالى ويمتنّ عليهم فيقول: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾[2]. وهؤلاء المهاجرون خرجوا فرارًا بدينهم، لا لدنيا أو زخرف، أو نعيم ومتاع، وإنما حيث الأمن والأمان في أداء شعائر دينهم وعباداتهم، ويتضح ذلك في الهجرة الأولى إلى الحبشة عند النجاشي الذي لا يظلم عنده أحد، إذ هاجروا بعيدًا عن صَلفِ أهل مكة من المشركين آنذاك والذين كانوا يسومونهم سوء العذاب حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم، وقد خرج من أشرافهم عثمان بن عفان ومعه زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول، وأبو سلمة بن عبد الأسود، في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة صديق وصديقة رضي الله عنهم

(1) (عون المعبود شرح سنن أبي داود، كتاب الجهاد، والهجرة ضربان).

(2) (سورة الحجرات، الآية: 8).

وأرضاهم. خرجوا تاركين وراءهم كل شيء من أجل أعظم ما يملكون.. الدين الحق.. وفي هذا يقول الشيخ البوطي معللًا تلك الهجرة: ذلك أن الدين إذا فُقِد أو غُلب عليه لم يغن من ورائه الوطن والمال والأرض، بل سرعان ما يذهب كل ذلك أيضًا من ورائه، أما إذا قوي شأنه وقامت في المجتمع دعائمه ورسخت في الأفئدة عقيدته؛ فإن كل ما قد ذهب في سبيله من مال وأرض ووطن يعود، يعود أقوى من ذي قبل؛ حيث يحرسه سياج من الكرامة والقوة والبصيرة[1].

وللنساء أيضًا في الهجرة نصيب

كان للنساء في هجرة الحبشة نصيب، كما كان لهن أيضًا في الهجرة إلى المدينة المنورة نصيب، وذكر القرآن الكريم ذلك؛ فقد قالت أم سلمة رضي الله عنها: يا رسول الله لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء. فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾[2] وقالت الأنصار هي أول ظعينة قدمت علينا. قال ابن كثير في قوله تعالى ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾:

(1) (فقه السيرة النبوية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي)

(2) (سورة آل عمران، الآية: 195).

أي تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان وفارقوا الأحباب والإخوان والخلان والجيران[1].

سلامة الدين كانت في الهجرة

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2]. لما أذن رسول الله ﷺ لأصحابه في الهجرة من مكة إلى المدينة تتابعوا إليها مهاجرين، إنما فعلوا ذلك ابتغاء مرضاة الله عز وجل إذ تركوا متاع الدنيا الزائل ليسلم لهم الدين.

قال الدكتور البوطي: حتى لم يبقَ بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي، ومعذب محبوس أو مريض أو ضعيف عن الخروج، وكانت فتنة المسلمين من أصحاب النبي ﷺ في مكة فتنة الإيذاء والتعذيب وما يرونه من المشركين من ألوان الهزء والسخرية، فلما أذن لهم الرسول ﷺ بالهجرة أصبحت فتنتهم في ترك وطنهم وأموالهم ودورهم وأمتعتهم. ثم إنه يستنبط من مشروعية هذه الهجرة حكمان:

1 – وجوب الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، روى القرطبي عن ابن العربي : «أن هذه الهجرة كانت فرضًا في أيام النبي ﷺ، وهي باقية مفروضة إلى يوم القيامة. والتي انقطعت بالفتح،

(1) (تفسير ابن كثير ج2، ص190).

(2) (سورة البقرة، الآية: 218).

إنما هي القصد إلى النبي ﷺ، فإن بقي في دار الحرب عصى». ومثل دار الحرب في ذلك كل مكان لا يتسنى للمسلم فيه إقامة الشعائر الإسلامية من صلاة وصيام وجماعة وأذان، وغير ذلك من أحكامه الظاهرة.

2 – وجوب نصرة المسلمين بعضهم لبعض، مهما اختلفت ديارهم وبلادهم ما دام ذلك ممكنًا[1].

من الكفر إلى الإيمان

لقد تحول الناس في ثلاث وعشرين سنة فحسب هي عمر الرسالة المحمدية منذ بعثة رسول الله ﷺ إلى وفاته؛ تحولًا كبيرًا شمل جوانب كثيرة في مناحي حياتهم بدءًا بالاستجابة للدين الجديد، ونبذ ما كان عليه الآباء والأجداد من شرك ووثنية فالحق أحق أن يتبع، ونهاية بالهجرة والتضحية بالمال والانتشار في البلاد للدعوة والتبشير بالدين الحق، لكن أهمها على الإطلاق تحولهم من ظلام الكفر إلى نور الإيمان، ومن تردد الشك إلى ثبات اليقين، وقد كان فيه ميلاد أمة، وتأسيس دولة، وقواعد بناء، وليس ذلك بالأمر السهل أو الهين، فلو نظرنا إلى أي مجتمع يبغي التغيير أو حتى التجديد والإصلاح في مواد بنائه من حيث أفراده وبنيته وقوانينه وقوميته، ومن حيث تغيير الأفكار وتصحيح المفاهيم وتحديد القيم التي يراد فرضها

(1) (انظر فقه السيرة النبوية للبوطي).

obeikandl.com

على أفراده؛ لاستغرق ذلك زمنًا طويلًا دون أن يصل إلى بعض ما وصل إليه رسول الله ﷺ مع أصحابه وأتباعه من بناة أمة الإسلام، وذلك هو الفرق بين ما يقام ويُبنى على أسس وقواعد من عند الله وبين ما هو من عند البشر بفهمهم القاصر ونظرتهم الناقصة، ولقد كان قائد مسيرة المسلمين تلك معلمهم ومرشدهم العظيم ﷺ، فدعاهم إلى الإيمان بالله وما تخلى عنه طرفة عين، وحثهم على الصبر على الأذى وهو أصبرهم، وأمرهم بالهجرة في سبيله وهاجر هو أيضًا، وندبهم للدعوة إليه وهو الداعية الأول.

ابحث عن أسباب الهداية، واسلك سبيلها

ألا وإن لنا في ذلك لعبرة وقدوة، ودافعًا قويًّا يدفعنا لسلوك طريقهم مع رحلتهم تلك، وتحولهم من الدعة إلى العمل، ومن الركون إلى الدنيا إلى طلب الآخرة، ومن حب النفس إلى حب الله ورسوله، مع الثبات على ذلك الطريق وعدم التزحزح عنه طرفة عين، ولا يتسنى لعاقل - فضلًا عن مسلم - أن يمر عليه حدث الهجرة ذاك دون شحذ الهمم وتزوّد الفؤاد، ليخرج بالدرس النافع والدواء الناجع، إن ذلك يتطلب مني ومنك البحث عن أسباب الهداية وسلوك سبيلها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾[1].

(1) (سورة محمد، الآية: 17).

الطريق إلى الإيمان والثبات عليه

– الدعاء وطلب الهداية.. فعن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى، أنه قال: «يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته. فاستهدوني أهدكم»[1] وفي دعاء القنوت في الوتر كما علمنا رسول الله ﷺ: «اللهم اهدنا فيمن هديت»[2].

– طلب الثبات من الله تعالى.. عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك» ثم قرأ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[3]

– المحافظة على نعمة الإسلام.. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[4]. أي حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه؛ فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه ومن مات على شيء بعث عليه، فعياذًا بالله من خلاف ذلك[5].

---

(1) (صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم الحديث: 2577).
(2) (صحيح ابن حبان، رقم الحديث: 722).
(3) (سورة آل عمران، الآية: 8 – تفسير الطبري ج6، ص213)
(4) (سورة آل عمران، الآية: 102)
(5) (تفسير ابن كثير ج2، ص87).

- العلم والعمل به.. قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾[1]. وعن سفيان بن عيينة أنه سئل عن فضل العلم فقال: ألم تسمع قوله حين بدأ به «فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك» فأمر بالعمل بعد العلم[2].

- الحذر والبعد عن أصحاب السوء.. فلا يزالون مع المرء حتى يهلكوه؛ فقد دخل أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية على أبي طالب حينما حضرته الوفاة، وقالا له: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب[3].

- الوالدان والأسرة.. وفي الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[4] وقد تربى عليّ وزيد في بيت النبي ﷺ، فانظر إلى آثار التربية النبوية على منهج الله، وما من ناجح في حياته أو عظيم في قومه إلا ولتربية الأسرة أثرٌ واضح في سلوكه وعمله.

- الأمن والحرية.. وهذان العنصران مهمان في الدعوة إلى الإيمان والثبات عليه وعدم الإكراه على ما لا يعتقده الإنسان من الباطل،

---

(1) (سورة محمد، الآية: 19).

(2) (تفسير الكشاف للزمخشري، ج5، ص524).

(3) (البداية والنهاية لابن كثير ج3).

(4) (صحيح البخاري، كتاب الجنائز، الله أعلم بما كانوا عاملين، رقم الحديث: 1319).

وقد (كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر: من رجل يؤويني حتى أبلغ كلام ربي؛ فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي» حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه وهاجر إليهم فواسوه ومنعوه من الأسود والأحمر رضي الله عنهم وأرضاهم)[1].

وكذلك شدد المشركون العذاب على عمار بن ياسر، وقالوا: لا نتركك حتى تسب محمدًا أو تقول في اللات والعزى خيرًا. فوافقهم على ذلك مُكرهًا، وكان صهيب بن سنان يعذب حتى يفقد وعيه ولا يدري ما يقول، وعذب بلال وخباب وزنيرة وغيرهم كثير، لذا فإن أي مكان لا يسمح فيه بقول الحق والدعوة إليه واعتناقه وأي مجتمع تحارب فيه حرية اختيار العقيدة؛ لا يرتجى خيره، ولا ينتظر من أهله ثباتًا على حق أو دعوة إليه إلا من رحم الله، ومن هنا كانت شرعتنا أن (لا إكراه في الدين)، وكان لأهل الكتاب في أعناق الدولة الإسلامية عهد وذمة لا تخفر.

- البيئة والمجتمع.. فكلما كانت البيئة مسلمة ملتزمة بشرع الله عز وجل فهي معينة على الثبات على الدين، وكل مكان لا يستطيع المسلم فيه إقامة شعائره لا يتسنى له المكث فيه. لذلك فقد اشترط العلماء لمن يقيم ببلاد الغرب شروطًا للإقامة فيها حفاظًا على دينهم وإسلامهم، منها:

(1) (تفسير ابن كثير ج2، ص45).

- أمن المقيم على دينه بحيث يكون عنده من العلم والإيمان وقوة العزيمة ما يطمئنه على الثبات عليه.

- أن يتمكن من إظهار دينه بحيث يقوم بشعائر الإسلام بدون ممانع، فإن كان لا يتمكن من ذلك لم تجزْ الإقامة لوجوب الهجرة حينئذ[1].

(1) (من مجموع فتاوى ورسائل العثيمين، بتصرف يسير).

obeikandl.com

(3)
الهجرة من المعصية إلى الطاعة

كانت الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السليم - خير مثال وأعظم دليل على حسن الامتثال لأمر الله عز وجل، وحبه وطاعته، وحسن التوكل عليه، فها هو أبو بكر - رضي الله عنه - يقول: كنت مع النبي ﷺ في الغار، فرأيت آثار المشركين، قلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا، قال: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[1] وها هم أصحابه - رضوان الله عليهم - قد فروا إلى الله بهجرتهم إليه، وهجروا موطن البلاء حيث الأذى والتنكيل والتعذيب، والفتنة في الدين، فهجروا الشرك ومحل الوثنية آنذاك حيث ثلاثمائة وستون صنمًا ووثنًا يصطفون حول الكعبة المشرفة، لكنهم خرجوا من مكة وهي أحب البقاع إلى الله، إلى هناك في يثرب حيث المدينة المنورة ليذوقوا طعم الحرية التي حوربوا من أجلها وعذبوا كثيرًا في سبيل نيلها، حرية الإيمان والعقيدة والدين التي حاول المشركون أن يسلخوهم منها جميعًا. هاجروا ليذوقوا طعم الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب فتنطق به الجوارح وتلهج به الألسنة. نعم فهم قد خرجوا منها

(1) (سبق تخريجه).

ليعودوا إليها! وها هي بشائر النصر قد هلت عليهم فإذا هم إليها عائدون فاتحون يحملون بين جوانحهم قلوبًا قد صقلها الإيمان وروتها الصحبة وزكاها العمل الصالح، قد نفضوا عن أنفسهم غبار المعاصي وشرورها وأدرانها، عادوا إليها ولكن بأرواح مشرقة عاشت في رحاب الله عز وجل بعد أن اغتسلت في بحار التوبة، وركنت واستكانت إلى طاعته، قد صاروا بفضل الله أتقياء أنقياء يرتعون في رياض الطاعات، التي يفيض نورها عليهم وعلى الناس من حولهم. وها هي النفوس المؤمنة تضيف إلى هجرتها السابقة هجرة أخرى جديدة باقية إلى يوم القيامة لا يفوت أجرها وثوابها على كل مؤمن، فهم لا يزالون مهاجرين رغم الفتح المبين.. إنها الهجرة من ذل المعصية إلى عز الطاعة.

هل أنت مهاجر إلى الله عز وجل؟

قد تظن أن الفرصة فاتتك لتكون مهاجرًا إلى الله عز وجل، لكن بإمكان أي مسلم منّا أن ينال شرف الهجرة وأن يكون من المهاجرين، فنبينا محمد سيد المهاجرين ﷺ يبشرنا؛ فيقول: "إن المهاجر من هجر ما نهى الله عنه والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[1] فالمهاجر من هجر الخطايا والذنوب كما قال رسول الله - ﷺ - في حجة الوداع: « ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم

(1) (سبق تخريجه).

الناس من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب»[1] وقد ضرب لنا هو وأصحابه - رضي الله عنهم - القدوة الحسنة في ترك الذنوب والخطايا والسمو بالروح فوق الشهوات النفسية والحظوظ الدنيوية التي تهوي بها إلى أسفل سافلين، فقد هجروا ما يكره الله تعالى من اللذات المحرمة وإن كان فيها رضا لبعض النفوس المنحرفة عن جادة الصواب الأمارة بالسوء، ونضرب لذلك مثالًا واحدًا يبين مدى مسارعتهم إلى طاعة الله ورسوله بما لا يدع مجالًا للشك بأنهم مهاجرون هجرة بعد هجرة، ومجاهدون جهادًا إثر جهاد، وذلك حين نزل قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[2]. فعن أبي النعمان قال كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة فنزل تحريم الخمر فأمر مناديًا فنادى فقال أبو طلحة اخرج فانظر ما هذا الصوت. قال فخرجت فقلت هذا مناد ينادي ألا إن الخمر قد حرمت فقال لي اذهب فأهرقها قال فجرت في سكك المدينة»[3]. وقالوا: انتهينا يا رب! قولاً مقترنًا بالعمل،

(1) (أخرجه ابن حبان في صحيحه، رقم الحديث: 4862).

(2) (سورة المائدة، الآية: 90 - 91).

(3) (صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة المائدة - باب ليس على الذين آمنوا...، رقم الحديث: 4344).

إذ لا تغني الأقوال عن الفعال، وهذا خطاب لجميع المؤمنين بترك هذه الأشياء؛ إذا كانت شهوات وعادات تلبسوا بها وغلبت على النفوس، وليكن لهم في هؤلاء الأبرار مثال حين تركوا شرب الخمر وانتهوا عنها امتثالًا لله وحبًّا وطاعة وهم من قد نشأوا مغمورين في بحارها، وغضوا أبصارهم عن محارم الله وحفظوا فروجهم وحصنوها بالزواج بعد أن كان الزنى له بيوت وأسواق في جاهليتهم، وانسلخوا من المعاملات المحرمة من الربا وأكل أموال الناس بالباطل، وأكل مال اليتيم ظلمًا وقد كان ذلك جزءًا من اقتصاد المجتمع الذي كانوا أفرادًا فيه آنذاك، لكن حب الله ورسوله ملك عليهم كل ذرة في كيانهم وتحول بهم إلى هجر المعاصي والخطايا والذنوب بعد أن هجروا الكفر والشرك وعبادة الأوثان إلى غير رجعة، وكل ذلك يحتاج لتوفيق الله عز وجل وعونه على الصبر عن محارمه.

من أفضل الطاعات الصبر عن محارم الله عز وجل

عن النبي - ﷺ - قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن يعصني فقد عصى الله»[1].

وطاعة الله ورسوله تحتاج إلى صبر ومجاهدة. قال ابن حجر: ويدخل في هذا الصبر المواظبةُ على فعل الواجبات والكف عن المحرمات، وذلك

(1) (صحيح مسلم، كتاب الإمارة، نزل يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، رقم الحديث: 3417).

ينشأ عن علم العبد بقبحها، وأن الله حرمها صيانة لعبده عن الرذائل، فيحمل ذلك العاقل على تركها ولو لم يرد على فعلها وعيد، ومنها الحياء منه والخوف منه أن يوقع وعيده فيتركها لسوء عاقبتها وأن العبد منه بمرأى ومسمع، فيبعثه ذلك على الكف عما نهي عنه، ومنها مراعاة النعم فإن المعصية غالبًا تكون سببًا لزوال النعمة، ومنها محبة الله، فإن المحب يصير نفسه على مراد من يحب[1].

احذر المعاصي.. وتجنب آثارها

إذا كان المهاجر هو من هجر الذنوب والخطايا وهو الذي يهجر ما نهى الله عنه ذلك؛ لأن لتلك المعاصي آثارًا كثيرة تؤثر على العبد وعلى قلبه وروحه وجسده، والكيس الفطن من حذرها واجتنب الطرق الموصلة إليها، وقد اقتطفت لك بعضًا من هذه الآثار باختصار، مما ذكره الإمام ابن قيم الجوزية[2]:

- فمن آثار المعاصي: وحشة يجدها العاصي بينه وبين الله تعالى لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلًا.
- ومنها: وحشة بين العاصي وبين الناس ولا سيما أهل الخير منهم. قال بعض السلف: إني لأعصي الله فأجد ذلك في خلق دابتي وامرأتي.

(1) (فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني).
(2) (الداء والدواء، لابن قيم الجوزية).

obeikandl.com

- ومنها: ظلمة يجدها العاصي في قلبه؛ لأن الطاعة نور والمعصية ظلمة. قال ابن عباس رضي الله عنه: إن للحسنة نورًا في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق.
- ومنها: حرمان الطاعة؛ حيث يصرف العاصي وقته في المعصية فيفوته الطاعة.
- ومنها: حرمان العلم؛ فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور.
- ومنها: حرمان الرزق: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب الذي يصيبه»[1].
- ومنها: تعسير الأمور، فلا يتوجه لأمره إلا يجده مغلقًا دونه أو متعسرًا عليه.
- ومنها: أنها تمحق بركة العمر، فكما يزيد البر في العمر، فإن المعصية تقصره وتذهب ببركته.
- ومنها: أنها أن العبد يألف المعاصي ويتعود عليها وتضعف عنده إرادة الخير، فتأتي السيئة بأخوات لها، كما قال بعض السلف: إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، وإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها.

(1) (صحيح ابن حبان، رقم الحديث: 872).

obeikandl.com

- ومنها: هوان العبد على ربه، كما قال الحسن البصري:هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم، وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾[1].
- ومنها:أنها تورث الذل لأن العز كل العز في طاعة الله تعالى، وكان من دعاء السلف: اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك.
- ومنها أنها تفسد العقل وتطبع على قلب صاحبها حتى يعمى.
- ومنها أنها تدخل العبد تحت لعنة الله ورسوله ﷺ، فإنه لعن كلّ عاصٍ كما لعن من سب أباه وأمه، وكما لعن النامصة والمتنمصة، ولعن آكل الربا وموكله، وغير ذلك مما ذكر في الأحاديث.
- ومنها حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة، فإن الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، والملائكة تدعو لهم فتقول: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[2].
- ومنها أنها تزيل النعم. كما قال علي رضي الله عنه: ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة.
- ومنها أنها مجلبة للذم وتسقط الكرامة وتذهب بالحياء وتجعل العاصي في سجن الشيطان.

---

(1) (سورة الحج، الآية: 18).

(2) (سورة غافر، الآية: 7).

- ومنها أنها تحدث الفساد في الأرض وتسبب الخسف والزلازل وتلقي الرعب والخوف في القلوب، وتجرئ على الإنسان أعداءه.

التوبة.. التوبة

كما علينا ألا ننسى أن المعصية كانت سببًا لخروج أبينا آدم عليه السلام وزوجه من الجنة، وأنها سبب الشقاء في الدنيا والآخرة، فلنحذر الوقوع فيها وإذا ما ضعفنا وارتكبناها فلنعد إلى الله ولنتب إليه ليغفرها لنا ويعفو عنا ويؤمننا من عقابه، فقد قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز منهم وأمنع لا يغيرون إلا عمهم الله بعقاب»[1].

(1) (سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، رقم الحديث: 4009، وصححه الألباني).

obeikandl.com

(4)
الهجرة من الجهل إلى العلم

كانت بعثة النبي ﷺ رحمة للعالمين، وكانت هجرته فتحًا مبينًا ونصرًا مؤزرًا على ضلالات الجهل والتخبط في دروبه والتيه في ظلماته، إذ تمكن المؤمنون من خلال تواجدهم في دولة الإسلام الناشئة من التفرغ لطلب العلم، وتلقيهم عن النبي ﷺ مشافهة، فالحال يساعد على ذلك في ظل البعد عن فتنة الإيذاء بمكة وما تبعها من استضعاف، لذا فقد تلقى الصحابة - رضي الله عنهم - من المهاجرين والأنصار كل كلمة من معلمهم العظيم بدقة وعناية، فتعلموا منه القرآن الكريم وهو يتنزل بينهم غضًّا طريًّا، وكان لهم نبينا ﷺ خير معلم، ولمَ لا وقد قال تعالى ممتنًّا على عباده: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1]. فجاء نبي الأمة الأمّية ليرفع عنها الأمّية وليحرر العقول من الخرافات والضلالات والجهل الصادّ عن سبيل الله عز وجل، وسما بها عن كل ما يهين آدميتها المكرمة فحرم الكهانة والسحر والعرافة والشعوذة، ونهى عن قراءة الكف والفنجان، وأبطل التنجيم وعبادة الأوثان، ودعا إلى نبذ

(1) (سورة آل عمران، الآية: 146).

كل ما من شأنه التدني بالعقل البشري ليسمو به في آفاق علوم جديدة نافعة على مستوى الفرد والبشرية جمعاء، جاء المعلم الأعظم ﷺ يعلمها لتخرج من أميتها بهذا العلم، وكان أول ما نزل آيات تدل على طريقه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1] فأخذوا العلم بجد، وانطلقوا به بثبات وحب، ليبلغوه غيرهم ويزيلوا به آثار الجهل من النفوس، ويبطلوا بيقينه وساوس شياطين العقول، ويهزموا بقوته شطحات الأهواء، انطلقوا سمعًا وطاعة لرسول الله ﷺ حين قال: «بلغوا عني ولو آية»[2].

أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم

لما عرف الصحابة - رضي الله عنهم - من رسول الله ﷺ أهمية العلم، وسمعوا منه عن قيمته وفضله، سارعوا لتعلمه فكانوا حملة للدين ووعاء للعلم، تراهم وهم يتناوبون على تلقيه من فم النبي الكريم ﷺ فتجد بعضهم يعمل في صنعته والآخر يسمع عنه، ويتناوبون على ذلك ثم يبلغ الحاضر منهم الغائب حتى لا تفوتهم منه كلمة، فحفظوا أقواله ﷺ وعلموا أحواله، الخاصة والعامة، وتلك خصيصة لا يشاركه فيها أحد، إذ لم يترك أصحابه - رضي الله عنهم - مما قال أو فعل شيئًا إلا وتسابقوا إليه حفظًا وفهمًا وعملًا، وتبليغًا للناس بصدق وأمانة وتقوى وورع، وتلك هي الرسالة التي بعث من أجلها خير البشر عليه الصلاة والسلام.

(1) (سورة العلق، الآيات: 1 - 5).

(2) (سبق تخريجه).

واستمر المسلمون في تلقي العلم، وكان أساس علمهم تعلم كتاب الله عز وجل إذ هو الطريق إلى باقي العلوم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا أردتم العلم فانثروا القرآن؛ فإن فيه علم الأولين والآخرين»[1]. ويبين لنا عمر - رضي الله عنه - المنهج في تعلمه؛ فيقول: «تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات، فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبي ﷺ خمسًا خمسًا»[2] وكانوا إذا صلوا الغداة قعدوا حِلقًا يقرأون القرآن ويتعلمون الفرائض والسنن، ويذكرون الله تعالى كما يقول أنس رضي الله عنه[3]. وأثِر عنهم كلمات صادقات تدعو إلى هجر الجهل والفرار من ظلمته، فقد روى أبو نعيم في الحلية قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق... ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك، ويعظم حلمك، وأن تباهي الناس بعبادة ربك[4].

---

(1) (موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين للشيخ محمد جمال الدين القاسمي).

(2) (رواه البيهقي في شعب الإيمان).

(3) (جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي).

(4) (حلية الأولياء لأبي نعيم، رقم الحديث: 239).

الناس تجاه العلم ثلاثة أنواع

عن أبي موسى – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «إن مثل ما بعثني الله به عز وجل من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا، فكانت منه طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادبَ أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه بما بعثني الله به، فعلم وعمل، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[1]. (ومعناه أن الأرض ثلاثة أنواع، وكذلك الناس. فالنوع الأول من الأرض ينتفع بالمطر فيحيى بعد أن كان ميتًا، وينبت الكلأ، فتنتفع بها الناس والدواب والزرع وغيرها، وكذا النوع الأول من الناس، يبلغه الهدى والعلم فيحفظه فيحيا قلبه، ويعمل به، ويعلمه غيره، فينتفع وينفع. والنوع الثاني من الأرض ما لا تقبل الانتفاع في نفسها، لكن فيها فائدة، وهي إمساك الماء لغيرها، فينتفع بها الناس والدواب، وكذا النوع الثاني من الناس، لهم قلوب حافظة، لكن ليست لهم أفهام ثاقبة، ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام، وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل به، فهم يحفظونه حتى يأتي طالب

(1) (صحيح مسلم، كتاب الفضائل – باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم، رقم الحديث: 2282).

محتاج متعطش لما عندهم من العلم، أهل للنفع والانتفاع، فيأخذه منهم، فينتفع به، فهؤلاء نفعوا بما بلغهم. والنوع الثالث من الأرض السباخ التي لا تنبت ونحوها، فهي لا تنتفع بالماء، ولا تمسكه لينتفع بها غيرها، وكذا النوع الثالث من الناس، ليست لهم قلوب حافظة، ولا أفهام واعية، فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به، ولا يحفظونه لنفع غيرهم)[1].

العلم فريضة

قال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم، وإن طالب العلم يستغفر له كل شيء، حتى الحيتان في البحر»[2].

وقوله (طلب العلم فريضة) قيل فيه: هو العلم الذي لا يسع البالغ العاقل جهله، وقال ابن المبارك: إنما هو أن يقع الرجل في شيء من أمور دينه فيسأل عنه حتى يعلمه. وقال البيضاوي: المراد من العلم ما لا مندوحة للعبد منه كمعرفة الصانع والعلم بوحدانيته ونبوة رسوله ﷺ وكيفية الصلاة، فإن تعلمه فرض عين. وقال الثوري: هو الذي لا يعذر العبد في الجهل به. وقيل هو طلب علم الحلال حيث كان أكل الحلال فريضة، وقيل: هو علم البيع والشراء والنكاح والطلاق إذا أراد الدخول في شيء من ذلك يجب عليه طلب علمه. وقيل: هو علم الفرائض الخمس التي بني

(1) (انظر صحيح مسلم بشرح النووي).

(2) (صحيح الجامع، رقم الحديث: 3914، وصححه الألباني).

obeikandl.com

عليها الإسلام. وقيل: هو طلب علم التوحيد بالنظر والاستدلال والنقل. وقيل:هو طلب علم الباطن وهو ما يزداد به العبد يقينًا، وهو الذي يكتسب بصحبة الصالحين والزهاد والمقربين فهم ورثة علم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[1].

ومن هذه الأقوال يتبين أن هذا العلم المذكور في الحديث الشريف إنما هو فرض عين على كل مسلم ومسلمة، وبه تزكو النفوس ويعرف العبد ربه فيعبده عبادة صحيحة. وهذا العلم مسئولية الجميع في تعلمه وتعليمه كبيرة، بداية بالأسرة فالمدرسة والمسجد والشارع والمجتمع، وهو يحتاج لطرق صحيحة في تدريسه وتعليمه منذ الصغر وفق مناهج ميسرة وأساليب متطورة تناسب كل الأعمار والمستويات، وتواكب التقدم العلمي الذي أظهر إعجاز القرآن والسنة النبوية المطهرة، لذلك لا بد وأن تنقح مناهجنا الدراسية مما يشوبها، ويعاد النظر إليها لتصاغ من جديد على أسس متينة تثبت الإيمان في القلوب، وأن يُعطَى المتعلمون في مدارسهم وقتًا مناسبًا لما يحتاجونه من هذا العلم العيني نظرًا لأهميته إذ يرتكز عليه الإيمان بما يبني العقول ويهذب النفوس ويحيي القلوب.

---

(1) (انظر حاشية السندي على ابن ماجه، كتاب المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ص98).

أمتنا مأمورة بالقراءة وطلب العلوم المختلفة

لقد علم المسلمون على مر العصور فضيلة العلم؛ فبدءوا بما هو فرض عين عليهم ثم أتبعوا ذلك بسائر علوم الدين والدنيا فظهر الفقهاء الذين عِلموا وفهموا، وفرّعوا وعلّموا، وكثر العلماء الربانيون، والدعاة المصلحون، كما تنافسوا في طلب فروض الكفاية من العلوم التي لا غنى عنها في حياتهم للتمكين في الأرض لأداء رسالتهم العظيمة، فصاروا أساتذة العالم ومعلمي البشرية في شتى العلوم ومختلف المجالات، فإذا ما نظرت إلى علوم الطب والكيمياء أو الفلك والفيزياء رأيتهم هناك! وإذا ما سألت عنهم في مجال الحساب والجبر أو الجغرافيا والجيولوجيا؛ فهم السابقون إليها! وإذا ما غصتَ في علوم البحار والطبيعة وجدتهم فيها الأوائل، حتى ترجمت كتبهم إلى لغات أخرى لينقل عنهم هذا العلم الذي كان لهم الريادة فيه. ويوم أن عرفوا أنهم الدعاة الهداة في كل شيء، وأن هذه رسالتهم للبشرية، رسالة الرحمة والنفع والهداية؛ أخذوا بأسباب ذلك فكان لهم في العلم شأن وأي شأن.

فحين نذكر العلم علينا ألا نحصره في العلوم الشرعية وإن كانت دائمًا هي الأصل. إنما نراه في كل علم نافع يفيد طالبه وينفع الناس والمجتمع من حوله، وإلا لما كان لأمة الإسلام الصدارة والفضل على سائر الأمم حين كانت هي القبلة لطلبة العلوم المختلفة يفدون على بلدانها من كل

مكان لطلب العلم، يوم أن كان الملوك والأمراء الأجانب يرسلون بعض أبنائهم إلى بلاد المسلمين لينهلوا من بحار علومنا، فيا لها من عزة وأي عزة! ذلك لما علمنا أن رسالتنا عالمية واسعة ليست محصورة في مكان بعينه ولا تحت علم معين! فكم نحن بحاجة للعودة إلى تلك المفاهيم الصحيحة.

حاجة الأمة كبيرة إلى جهود أبنائها العلماء

إن أمتنا دائمًا لفي حاجة إلى متخصصين في أمور الشريعة لحفظ ذلك الدين وتبليغه والقيام بواجب الدعوة إليه، والذي لا يسقط إلى يوم القيامة، وإلى متخصصين في العلوم الأخرى من طب وفلك وحساب وكيمياء وتاريخ وجغرافيا وهندسة، نحتاج لمن يتخصص في علوم اللغات المختلفة لنوصل لأصحابها رسالتنا، ونمد حبل التواصل بيننا وبينهم، نحتاج لخبراء في علوم العصر الحديثة من التكنولوجيا المختلفة، في الاتصالات والاختراعات وغيرها من سائر العلوم التي هي شعار لقوة الأمم ومبرر لسيادتها، ولن نكون خير الأمم إن لفَّنا الجهل وأحاطت بنا ظلماته فانتظرنا من غيرنا أن يكشفه عنا أو يعطينا مما عنده، وكيف يعطينا إذا حرمنا نحن أنفسنا؟! كما أنها بحاجة إلى معلمين ومعلمات من أصحاب الكفاءة والخبرة الذين يؤدون أعمالهم بصدق وإخلاص، موقنين أنهم أصحاب رسالة وأنهم على طريق رسول الله ﷺ وهم بدورهم يحتاجون دائمًا

لإمدادهم بالجديد المبتكر عن طريق حضور الدورات العلمية المستمر، والاطلاع الدائم على ما جدّ على الساحة العلمية، على أن يعود للمعلم دوره ومكانته التي أكرمه الله بها، فنعلي من شأن المعلم ونُجِلّه ونحترمه.

وأنت يا طالب العلم

أين أنت من كل هذا يا طالب العلم؟! إن الأمل معقود عليك بعد الله، وأمتك تنتظرك وهي بحاجة إليك.. ورسول الله ﷺ يقول لك: «من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتى يرجع»[1] ويقول: «ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة»[2].

إنك بلا شك تنتمي إلى تلك الأمة العظيمة، أمة اقرأ التي أمرت بالقراءة، والتي دعاها قرآنها من فوق سبع سماوات إلى الأخذ بأسباب العلم وسلوك سبيله، وما ذاك إلا لأهمية تلك المرحلة - مرحلة التعلم والعلم - في حياة أي فرد، وفي بناء أي أمة وفي نهضة أي مجتمع، وإن المجتمعات الجاهلة ليس لها أن تسود أو ترتقي، وليس لها مكان بين الأمم. ألا تعلم أنك على ثغرة من ثغور الإسلام لا بد لك أن تسدها وتحفظها، فكم من

(1) (سنن الترمذي، كتاب العلم، من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، رقم الحديث: 2647، ضعفه الترمذي).

(2) (صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، رقم الحديث: 2699).

نفوس انحرفت بسبب جهل أصحابها بالدين الحق، وكم من ثغور ضُيّعت وتُضيّع بسبب جهل أهلها وذويها. لذا فإن عليك أولًا أن تتعلم دينك وحينها ستعرف أن هذا الدين عظيم يطلب من أبنائه أن يتعلموا ويتخصصوا في كل علم نافع للبشرية؛ ليكونوا شامة بين الأمم ويحققوا الاكتفاء الذاتي لأنفسهم حتى لا يمدوا أيديهم إلى غيرهم استجداء، بل تمتد هي بالعطاء للعالم من حولهم، عطاء بلا حدود وفي كل شيء، عطاء روحيًّا ونفسيًّا، ماديًّا وعمليًّا، عطاء يشمل علوم الدين والدنيا معًا، فنحن لا نستغني عن أحدهما ولا نتعلم الا لأجلهما معًا، وهذا هو الفرق بيننا وبين غيرنا من الأمم حين نمسك بزمام العلم فنسوقه كما أراد الله له، نفعًا شاملًا للبشرية لا دمارًا! لذا فقد أمرنا ديننا أن نقرأ ونتعلم باسم الله وفي سبيل الله ووفق منهج الله ومن أجل وجه الله تعالى، وبهذا نستحق أن نكون الأمة الوسط التي توازن بين متطلبات الروح وحاجة الجسد، والدنيا والآخرة، والتي تعرف لكل منهما حقه فتؤتيه إياه، بلا إفراط أو تفريط، وبلا غبن أو خسارة.

(5)
الهجرة من الفرقة إلى الوحدة

إن أيّ بناء في حياة البشر لا يقوم له بنيان ولا يظهر له وجود ولا يعمّر طويلًا؛ ما لم يُبنَ على أسس صحيحة وقواعد متينة ومواد صالحة، فما ظنك إذا كان هذا البناء هو الإنسان نفسه وروحه وعقله، وما هو الحال إن كان ذلك البناء هو أمة الإسلام ذاتها متمثلًا في كل فرد من أفرادها، لا شك أن ذلك هو البناء الأكبر الذي يحتاج إلى الجهد الأعظم في بنائه لشرفه وأهميته بل وخطورته. لذا فإن رسول الله ﷺ لما هاجر من مكة إلى المدينة بدأ على الفور في إنشاء الدولة الإسلامية وإرساء قواعدها على أسس متينة وقواعد صلبة، فكان بناء المسجد أول عمل قام به ﷺ حيث تجلت في بنائه روح الأخوة الرائدة وصور التعاون الحقة فشارك في البناء قائدهم ومرشدهم الأعلى رسول الله ﷺ، والمهاجرون والأنصار من حوله يعملون معه، وصار المسجد بمجرد بنائه أعظم صرح في ذلك الوقت لتخريج دفعات من الخريجين المؤمنين الذين نجحوا ووُفقوا في اجتياز اختبارات الرياضة الروحية بما تحقق فيهم من روح الألفة والأخوة والحب والمواساة لإخوانهم، والرياضة البدنية بحسن القيام بالتكاليف الشرعية

بكفاءة وتفوق لا مثيل له في عالم البشرية، وظهر دور المسجد في ذلك واضحًا جليًّا؛ حيث لم يقتصر على الجانب التعبدي فحسب بل صار شاملًا كل مناحي الحياة شمول الإسلام العظيم الذي يرمز له.

يقول الدكتور عماد خليل في ذلك: وسرعان ما غدا (المسجد) رمزًا لما يتسم به الإسلام من شمولية وتكامل، فقد أصبح مركزًا روحيًّا لممارسة الشعائر وأداء العبادات، ودائرة سياسية عسكرية لتوجيه علاقات الدولة في الداخل والخارج، ومدرسة علمية وتشريعية يجتمع في ساحاتها أصحاب الرسول ﷺ، وتدار في باحاتها الندوات، وتُلقى على منبرها المتواضع التعاليم والكلمات، ومؤسسة اجتماعية يتعلم المسلمون فيها النظام والمساواة ويمارسون التوحد والإخاء والانضباط... لقد كان بناء المسجد هو الخلية الأولى للبناء الاجتماعي للأسرة والجماعة بوصفه صهر المؤمنين بالإسلام في وحدة فكرية واحدة من خلال حلقات العلم والقضاء والعبادة والبيع والشراء وإقامة المناسبات المختلفة... فلم يكن المسجد معبدًا أو مقرًّا للصلاة وحدها بل كان شأنه شأن الإسلام نفسه متكاملًا في مختلف جوانب الدين والسياسة والاجتماع[1].

(1) (انظر دراسة في السيرة للدكتور عماد الدين خليل).

دور المسجد عظيم لا ينكره أحد

أما عن دوره في ذلك فيكفي التقاء المسلمين من رواده كل يوم للصلاة بعضهم ببعض، ولا ريب أن ذلك التلاقي يؤدي بدوره إلى الحب والأخوة في الله وخير الصحبة التي تكون سببًا في رضاه سبحانه يوم القيامة، وفي الحديث قال النبي ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» وذكر منهم: «ورجل كان قلبه معلقًا بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله فاجتمعا على ذلك وتفرقا»[1].

في المسجد يقف المسلم بجانب أخيه المسلم عند الصلاة فتلتصق قدمه بقدمه، ويحاذي منكبه منكبه، ويكون التزاحم والتراحم في مظهر أخوي عظيم لا تجده في مكان آخر، وليس المسجد حكرًا على أحد وإنما يحظى بالصف الأول منه السابقون إلى الخيرات المحافظون على الصلوات. كذلك يجلس المسلمون معًا لاستماع الخطب والدروس وحضور الحلقات يجمعهم هدف واحد وغاية واحدة وإن تعددت وسائل الوصول إليها. وفي المسجد كذلك يرتبط الناس بعضهم ببعض وتكون الصداقة والإخاء فيتحابون في الله حين تتعلق قلوبهم بأحب البقاع إلى الله، ولا ينكر فضل المسجد وأثره أحد. وفي هذا يقول الدكتور البوطي: إن من نظام الإسلام وآدابه شيوع آصرة الأخوة والمحبة بين المسلمين، ولكن شيوع هذه الآصرة لا يتم إلا في المسجد، فما لم يتلاقَ المسلمون يوميًّا، على مرات متعددة

(1) (سنن الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، المتحابون في جلالي، رقم الحديث: 2391، وصححه الألباني).

في بيت من بيوت الله، وقد تساقطت مما بينهم فوارق المال والجاه والاعتبار لا يمكن لروح التآلف والتآخي أن تؤلف بينهم. وإن من نظام الإسلام وآدابه أن ينصهر أشتات المسلمين في بوتقة من الوحدة الراسخة يجمعهم عليها حبل الله الذي هو حكمه وشرعه، ولكن ما لم تقم في أنحاء المجتمع مساجد يجتمع فيها المسلمون على تعلم حكم الله وشريعته ليتمسكوا بها على معرفة وعلم، فإن وحدتهم تؤول إلى شتات، وسرعان ما تفرقهم عن بعضهم الشهوات والأهواء[1].

الأخوّة بين المسلمين

وكان ذلك هو الأساس الثاني الذي قامت عليه دعائم الدولة المسلمة في مهدها فقد بدأه النبي ﷺ بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار أخوة مطلقة تذوب معها فوارق الجنس واللون والنسب والعشيرة، أخوة تجعل الأخ الأنصاري يتقاسم فيها مع أخيه المهاجر ما يملك! أخوّة إسلامية الرابط فيها الدين الحق لتكون بذلك أقوى من أخوّة القرابة والنسب. أخوّة توجب العون والنصح والبر والمواساة والتوارث بعد الوفاة، وظل أثر هذه الأخوّة في الميراث إلى غزوة بدر حيث نزل في أعقابها قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[2] فرجع كل إنسان في الميراث إلى نسبه وذوي رحمه وأصبح المؤمنون كلهم إخوة بالإسلام. وقد عبَر الأنصار ذلك الاختبار الصعب اختبار الإيثار والتضحية

(1) (انظر فقه السيرة النبوية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي).

(2) (سورة الأنفال، الآية: 75).

بالمال وبما يملكون في سبيل الله، من أجل إيواء أناس وفدوا عليهم مهاجرين ربما لم يتعرفوا عليهم ولم يلتقوا بهم أو يشاهدوهم من قبل، لكنهم بكل رضا تخلوا عن الأنانية وحب ذواتهم بطريقة لم يشهد لها في التاريخ نظيرًا على مرّ العصور، فعن أنس – رضي الله عنه – قال: (قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلًا في كثير، لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهنأ حتى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كله. قال: لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله عز وجل لهم)[1] وقد نزل القرآن الكريم يشهد لهم بذلك، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2].

أخوّة والتزامات

آخى النبي ﷺ بين المسلم وأخيه المسلم، كما أصدر وثيقة نظم فيها العلاقات بين أفراد المجتمع المسلم الجديد وبين من حولهم ممن يسكن المدينة، وجاء في هذه الصحيفة ما يحوّل أفراد الدولة المسلمة من الفرقة إلى الوحدة والجماعة، ويحول بينها وبين اختلاف القلوب في ظل الالتزام بما فيها من تعاليم، بل وجاء في بنودها صفة الأمة الواحدة التي جمعها الدين الخاتم ووجوب التراحم بين أفرادها، والأخذ بكل السبل لتحقيق

(1) (سبق تخريجه).

(2) (سورة الحشر، الآية: 9).

الألفة والوحدة وحلّ ما يحدث بينهم من مشكلات أو خلافات دون تدخل أجنبي بينهم قد يسعى للوقيعة والدسيسة في صفوفهم متبعًا منهج فرق تسد!

ومما جاء فيها: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس، وأن المؤمنين لا يتركون مغرمًا (مثقلًا بالدين) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل، وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (كبيرة) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم.....)[1].

إن نصوص الصحيفة توافق القرآن الكريم في المبادئ العامة من حيث اعتبار المسلمين أمة واحدة من دون الناس، ومن حيث التراحم والتعاون فيما بينهم ومن حيث الاحتفاظ برابطة الولاء وما يترتب عليها من حقوق الموالاة، ثم من حيث مراعاة حقوق القرابة والصحبة والجوار[2].

الجماعة.. الجماعة

إن الله تعالى يدعونا جميعًا للاعتصام بحبله والاتحاد والوحدة، ويحثنا على أن نكون جميعًا على قلب رجل واحد، وينهانا عن التفرق فيقول: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[3]، و قد كان أصحاب رسول الله ﷺ

(1) (انظر دراسة في السيرة للدكتور عماد الدين خليل).
(2) (المرجع السابق).
(3) (سورة آل عمران، الآية: 103).

يتواصون بذلك، فها هو ابن عباس - رضي الله عنه - يقول لسماك الحنفي: يا حنفي، الجماعة.. الجماعة! فإنما هلكت الأمم الخالية لتفرقها؛ أما سمعت الله عز وجل يقول: «واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا». وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله يرضى لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا يرضى لكم أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، ويكره لكم ثلاثًا، قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال»[1]. فأوجب تعالى علينا التمسك بكتابه وسنة نبيه والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقادًا وعملًا؛ وذلك سبب اتفاق الكلمة وانتظام الشتات الذي يتم به مصالح الدنيا والدين، والسلامة من الاختلاف[2].

دعوة إلى الحياة الطيبة السعيدة

إن الحياة بدون الوحدة والاتحاد حياة ناقصة يشوبها وينغصها مرارة الفراق والتشتت، والعيش دون إيمان يجمعنا وأخوة تربطنا وإخاء يلفنا يفقد الحياة أجمل ما فيها، والحياة السعيدة حقًّا هي تلك الحياة التي ينعم أفرادها بلذة الوحدة وترابط الجماعة، وألفة الأخوّة، ألا ترى أن سعادة المؤمنين في الجنة لا تكتمل إلا باجتماعهم مع من يحبون؟ لذا؛ فإن الله

(1) (صحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، رقم الحديث: 3236).

(2) (انظر تفسير القرطبي ج4، ص155).

عز وجل يجمعهم مع أحبابهم فيها كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾[1].

إننا نريد العودة إلى معاني تلك المحبة، وحقوق هذه الأخوّة، نتمنى الوحدة والترابط على كافة المستويات، بداية من محيط الأسرة الصغيرة والذي لم يسلم هو الآخر من أثر النزاع الذي صدع بنيانه، وحلول الفرقة بين أجزائه التي ذهبت بما تبقى فيه من حب ووئام. ووصولًا إلى وحدة الشعوب المسلمة والعودة بها إلى الشعور بالانتماء، والانضمام تحت لواء الأمة الواحدة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾[2].. فإن الله عز وجل يخاطبنا في كتابه بلفظ الجمع لنعرف أننا جزء واحد وجسد واحد وبنيان متكامل يشد بعضه بعضًا.

نريد أن نعرف للجار حقه فلا نفرط فيه، قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره»[3] نريد أن يعرف كلّ منَّا ما عليه تجاه أخيه المسلم فيقوم به خير قيام بلا منّ أو لوم أو أذى أو عتاب.. قال ﷺ: «حق المسلم على المسلم ست. قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض

(1) (سورة الطور، الآية: 21).

(2) (سورة المؤمنون، الآية: 52).

(3) (صحيح مسلم، كتاب الإيمان، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر..، رقم الحديث: 4869).

فعده، وإذا مات فاتبعه»[1] وقال: (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»[2].

نريد أن نؤدي الحقوق إلى أهلها فلا نظلم أحدًا، نريد أن يعرف كل إنسان على هذه الأرض حق أخيه الإنسان فلا يظلمه أو يهضمه؛ فالكل في الإنسانية سواء. قال ﷺ: «المؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم»[3]. وقال: «إن ربكم واحد وإن أباكم واحد؛ ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى»[4].

(1) (صحيح مسلم، كتاب السلام - خمس تجب للمسلم على أخيه، رقم الحديث: 2162)

(2) (صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، رقم الحديث: 2310).

(3) (سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، المؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، رقم الحديث: 3934، وصححه).

(4) (مسند أحمد، باقي مسند الأنصار، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، رقم الحديث: 22978، وصححه الألباني).

obeikandl.com

(6)
الهجرة من البدعة إلى السنّة

نشأ رسول الله ﷺ في قومه بمكة وقد امتلات بالأصنام حول كعبتها المشرفة، رآهم وهم يعبدونها ويسجدون لها ويتقربون إليها بالقرابين وغيرها مما فيه شرك بالله عز وجل وتردٍّ بالعقل وسفاهة في الرأي، عبدوها في تلك الأرض الطاهرة التي كانت تدين بدين إبراهيم عليه السلام، واتبعوا في ذلك أول من ابتدع تلك العبادة وأحدثها وأنشأها لهم في أرضهم؛ وهو عمرو بن لحي رئيس خزاعة، فهو أول من أدخل الأصنام إلى مكة والحجاز بعد أن رأى الناس يعبدونها في الشام، فاستحسن ذلك وظنَّه حقًّا؛ لأن الشام محل الرسل والكتب، فقدم معه من هناك بهبل وجعله في جوف الكعبة، وقد كان لعمرو منزلة بين الناس وكلمة مطاعة فاتبعوه في ذلك، وصار الشرك وعبادة الأصنام أكبر مظهر من مظاهر دين أهل الجاهلية الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم، وكانت لهم تقاليد ومراسم في عبادتها ابتدع أكثرها عمرو بن لحي، وكانوا يظنون أن ما أحدثه بدعة حسنة وليس بتغيير لدين إبراهيم عليه السلام، فإذا نظرت إليهم رأيتهم يعكفون عليها ويستغيثون بها ويحجون إليها ويتقربون لها بأنواع من القرابين، ويخصونها

بشيء من مآكلهم ومشاربهم وحرثهم وأنعامهم بل وأبنائهم، ويعتقدون أنها تقربهم إلى الله وتوصلهم إليه وتشفع لديه كما جاء في القرآن الكريم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1]، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[2].

الدعوة إلى العودة للفطرة السليمة

وحين بعث رسول الله ﷺ كانت بعثته رحمة بكل شيء.. رحمة بالنفس البشرية ليخرجها من هذه البدعة المهلكة بدعة عمرو بن لحي الذي فني وهلك وظلت بدعته فيهم تمارَس، بُعِث ﷺ ليقضي على الشر متمثلًا في الشرك والوثنية، ليعود بالناس إلى معين الفطرة والحنيفية السمحة دين إبراهيم عليه السلام، فقد ناشد تلك العقول المضلَّلَة أن تعود لفطرتها النقية، دعاهم إلى التفكر في هذه البدعة المحرقة - بدعة الوثنية - وبيّن لهم كيف أن الشيطان استغل جهلهم وبعدهم عن دين أبيهم الخليل - عليه السلام - حتى صارت البدعة في نظرهم قربة وزلفى إلى الله؛ فآمن منهم من آمن واستجاب لنداء الفطرة وكانوا قلة، وبقي الكثيرون ممن يتمسك بالقديم ولو كان فاسدًا باليًا، ويتبع الآباء ولو ضلوا سواء السبيل، ويتعصب للأجداد ولو كانوا ظالمين. قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[3].

(1) (سورة الزمر، الآية: 3).

(2) (سورة يونس، الآية: 18).

(3) (سورة الزخرف، الآية: 22).

وقد ذم الله سبحانه وتعالى من اتخذ التقليد سبيلًا له بغير فهم واتباع حتى لو كان تقليد الآباء والأجداد، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[1]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[2].

الرسول ﷺ سيد المتبعين لأمر الله عز وجل

وحين هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة؛ كان ذلك اتباعًا لأمر الله عز وجل، فعندما تم اتخاذ القرار الغاشم بقتل النبي ﷺ نزل إليه جبريل بوحي من ربه تبارك وتعالى، فأخبره بمؤامرة قريش، وأن الله قد أذن له في الخروج وحدد له وقت الهجرة قائلًا: لا تبت هذه الليلة على فراشك، الذي كنت تبيت عليه. وها هو يخبر أبا بكر - رضي الله عنه - قائلًا: «إن الله قد أذن لي في الخروج»، وها هو يتلقى أمره بالقبول والاتباع، على ما فيه من ترك الوطن وبعد عن الأهل ومشقة في السفر وخطورة الطريق، فهو يتبع أمر ربه كما ذكر القرآن الكريم: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[3]. لذا فإن كل كلمة يتفوّه بها وكل لفظة يلفظها وكل فعل يفعله أمام أصحابه من أمور التشريع إنما هو من عند الله سبحانه وتعالى الذي زكاه، فقال عنه:

(1) (سورة البقرة، الآية: 170).

(2) (سورة المائدة، الآية: 104).

(3) (سورة الأحقاف، الآية: 9).

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾[1]. وهو ﷺ قدوتنا ومعلمنا في الاتباع والطاعة والامتثال لأوامر الله. وهو القائل حين وضع دستور الدولة المسلمة بعد الهجرة: «وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثًا ولا يؤويه؛ وأنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة»[2].

الهجرة من دار البدعة إلى دار السنة

لقد هاجر النبي ﷺ لله تعالى هجرة كاملة وهاجر معه كذلك أصحابه، هاجر أولًا بعقول هذه القلة من المؤمنين، حين استجابوا لدعوته وهجروا الجهل بالدين إلى العلم به، كما هاجر بقلوبهم حين أعلنت الكفر بالأصنام ولزمت الإيمان بالرحمن، وبقي له الآن أن يهاجر بتلك الأبدان من دار البدعة إلى دار السنة، ومن محيط بدعة عبادة الأوثان وعابديها إلى الأرض الطيبة وساكنيها؛ حيث سنة التوحيد الواجبة التي فطر الله الناس عليها امتثالًا لأمره عز وجل ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3] فإلى الدين القيم المستقيم؛ حيث التمسك بالشريعة والفطرة السليمة. «ولكن أكثر

(1) (سورة النجم، الآية: 3).

(2) (انظر السيرة النبوية لابن هشام، هجرة الرسول ﷺ، كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار).

(3) (سورة الروم، الآية:30).

الناس لا يعلمون». ويبين ﷺ ذلك فيقول لأصحابه: «إن ربي عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني، يومي هذا: كل ما نحلته عبدًا حلال وإني خلقتُ عبادي حنفاء كلهم. وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمتْ عليهم ما أحللتُ لهم. وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا»[1].

البدعة

عن جابر – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ كان يقول لأصحابه في خطبته: «إن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة، بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»[2].

والبدعة لغة: الشيء المخترع على غير مثال سابق، ومنه قول العزيز الحميد: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾[3] أي ما كنت أول المرسلين؛ فقد أرسل قبلي رسل كثير، وجئت على فترة منهم. ويقال لمن أتى بأمر لم يسبقه إليه أحد: أبدع وابتدع. وتبدع: أي أتى ببدعة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾[4]، وبديع السماوات والأرض صفة من صفات الله تبارك وتعالى؛ لإبداعه إياها وإحداثه لها لا عن سابق مثال لقوله تعالى:

(1) (صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم الحديث: 2865).

(2) (صحيح النسائي، رقم الحديث: 1577، وصححه الألباني).

(3) (سورة الأحقاف، الآية: 9).

(4) (سورة الحديد، الآية: 27).

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] . فالبدعة اسم هيئة من الابتداع، وهي كل ما أحدث على غير مثال سابق، وهي تطلق في عالم الشر والخير، وأكثر ما تستعمل عرفًا في الذم. واختلف العلماء في تحديد معنى البدعة شرعًا، فمنهم من جعلها مقابل السنة، ومنهم من جعلها عامة تشمل كل ما أحدث بعد عصر الرسول ﷺ سواء كان محمودًا أم مذمومًا، وقيل: إن البدعة هي الطريق المخترعة في الدين التي تضاهي الشريعة، يقصد بها التقرب إلى الله، ولم يقم على صحتها دليل شرعي صحيح. وقيل أيضًا: المراد بالبدعة ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه، وأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعًا، وإن كان بدعة لغة[2].

كل بدعة ضلالة

وقوله ﷺ: «وكل بدعة ضلالة» من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء، وهو أصل عظيم من أصول الدين، وهو شبيه بقوله: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[3]، فكل من أحدث شيئًا ونسبه إلى الدين لم يكن له أصل من الدين يرجع إليه؛ فهو ضلالة والدين منه بريء، وسواء ذلك في مسائل الاعتقادات أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة أو الباطنة.

---

(1) (سورة البقرة، الآية: 171).

(2) (انظر البدعة وأثرها السيىء في الأمة، للشيخ سليم الهلالي).

(3) (صحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم الحديث: 1718).

Obeikandl.com

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة. وقال الإمام أحمد: أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب الرسول ﷺ، والاقتداء بهم وترك البدع، وكل بدعة ضلالة. أما إمام دار الهجرة فيقول: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا خانَ الرسالة؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1] فما لم يكن يومئذ دينًا لا يكون اليوم دينًا.

وكان عبد الله بن مسعود – رضي الله – عنه من أشد الصحابة إنكارًا للبدع وهجرًا للمبتدعين، فكان يقول: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم. وقد سمع رجلًا عطس، فقال: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، فقال له: ما هكذا علمنا رسول الله ﷺ بل قال: إذا عطس أحدكم فليحمد الله، ولم يقل وليصل على رسول الله[2].

هل هناك بدعة حسنة وبدعة سيئة؟

يقول الشافعي: البدعة بدعتان، بدعة محمودة وبدعة مذمومة، فما وافق السنة فهو محمود، وما خالف السنة فهو مذموم[3]. ويقول: «المحدثات ضربان ما أحدث يخالف كتابًا أو سنة أو أثرًا أو إجماعًا؛ فهذه بدعة الضلال، وما أحدث

(1) (سورة المائدة، الآية: 3).

(2) (انظر البدعة وأثرها السيىء في الأمة: للشيخ سليم الهلالي).

(3) (رواه أبو نعيم في حلية الأولياء).

من الخير لا يخالف شيئًا من ذلك فهذه محدثة غير مذمومة»[1]. وما وقع في كلام السلف من استحسان بعض البدع فإنما ذلك في البدع اللغوية لا الشرعية، فمن ذلك قول عمر – رضي الله عنه – لما جمع الناس في قيام رمضان على إمام واحد في المسجد وخرج ورآهم يصلون كذلك، فقال: نعمت البدعة هذه، إن كانت هذه بدعة فنعمت البدعة. فعمر – رضي الله عنه – قد علم أن ذلك العمل كان له أصل في الشرع فقد كان النبي ﷺ يحث على قيام رمضان ويرغِّب فيه، وكان الناس في زمنه يقومون في المسجد جماعات متفرقة ووحدانًا، وهو ﷺ صلى بأصحابه في رمضان غير ليلة، ثم امتنع من ذلك معللًا بأنه خشي أن يكتب عليهم، فيعجزوا عن القيام به، وهذا قد أُمِن بعده ﷺ[2].

وقد قسَّم العلماء البدعة إلى بدعة دينية وبدعة دنيوية، فالبدعة في الدين هي: إحداث عبادة لم يشرعها الله سبحانه وتعالى. وأما الدنيوية: فما غلب فيها جانب المصلحة على جانب المفسدة فهي جائزة وإلا فهي ممنوعة، ومن أمثلة ذلك: ما أحدث من أنواع السلاح والمراكب ونحو ذلك..... وكذلك الأمور العادية الدنيوية المبتدعة كالطائرات ومكبرات الصوت ونحوها، وليس فيها محذور شرعي، فاستعمالها لا محذور فيه إذا لم يكن في ذلك ظلم لأحد ولا نصر لبدعة أو منكر، وليست داخلة في الأحاديث المحذرة من البدع[3].

(1) (البيهقي، المدخل إلى السنن والكبرى، باب ما يذكر من ذم الرأي، رقم الحديث: 190).
(2) (جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي بتصرف).
(3) (فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء، من الفتوى رقم 2577).

احذر أن يُرَدَّ عليك عملُك

قال ابن القيم الجوزية في كتابه مدارج السالكين: (إنما الأعمال الصالحة بالنيات الصالحة، والنية الحسنة لا تجعل الباطل حقًّا؛ لأن النية وحدها لا تكفي لتصحيح الفعل فلا بد أن ينضم إليها التقيد بالشرع).

وقد بين لنا الرسول ﷺ الميزان التي نزِن به أعمالنا ظاهرًا وباطنًا فقال: "إنما الأعمال بالنيات"[1]، فالنية ميزان للأعمال في باطنها، ولا بد أن تكون خالصة لوجه الله. وقال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[2] وهذا ميزان للأعمال في ظاهرها، فكما أن كل عمل لا يُراد به وجه الله تعالى فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على عامله، وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله؛ فليس من الدين في شيء[3].

خطورة البدعة في الدنيا والآخرة

حين وصى رسول الله ﷺ أصحابه تلك الموعظة البليغة قائلًا لهم: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبدًا حبشيًّا فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديِّين

(1) (صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم الحديث: 1).
(2) (سبق تخريجه).
(3) (انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي).

الراشدين تمسكوا بها وعضُّوا عليها بالنَّواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإنَّ كل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة»[1]. كان ذلك تحذيرًا لهم من سوء عاقبة البعد عن منهج الله عز وجل، أواستحداث ما لا أصل له فيه بالابتداع ولو كان بنية حسنة أو عن غير علم، لذا فقد أكد عليهم ودعاهم إلى السنة ولزومها والعضّ عليها بالنواجذ (الأضراس) كناية عن التمسك بها حتى لا يحيد المرء عنها في زمن قادم، والاختلاف فيه كائن. ذلك لأن البدعة أثرها خطير، وهي لا تضر المبتدع فقط بل كل من يتبعه عليها، كما أنها ليست عملًا وليد لحظة وينتهي بل يموت صاحبها وهي كائنة لا زالت تردّد وتُنقل ويُعمَل بها.

من أخطار البدع وآثارها

- البدعة بريد الكفر؛ لأن المبتدع نصّب نفسه مشرعًا لله وندًّا، فاستدرك على أحكم الحاكمين، وظن أنه على ملة أهدى من ملة محمد ﷺ، وقد علمنا ما كان من عمرو بن لحي حين ابتدع عبادة الأصنام بمكة.

- البدعة تميت السنة، وقد فهم السلف الصالحون أن البدعة والسنة لا يجتمعان، فقال التابعي الجليل حسان بن عطية رحمه الله: ما ابتدع قوم بدعة في دينهم إلا نزع من سنتهم مثلها ثم لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة[2].

(1) (سنن أبي داود، كتاب السنة، أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدًا حبشيًّا، رقم الحديث: 4607، وصححه الألباني).

(2) (سنن الدارمي، باب اتباع السنة، حديث موقوف رقم: 98).

- البدعة سبب الهلاك؛ لأنها تقود إلى ترك السنة، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم[1].

- البدعة تفتح باب الخلاف على مصراعيه، وهو باب ضلالة.

وقد ذكر سليم الهلالي في كتابه (البدع وأثرها السيئ في الأمة) خطورة البدع لا سيما على صاحبها، ومن ذلك:

- أن صاحب البدعة عمله مردود، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[2]. ولحديث (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[3].

- أن التوبة عنه محجوبة ما دام مصرًّا على معصيته مقيمًا على بدعته ويُخشى عليه سوء الخاتمة. قال ﷺ: «إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته»[4].

- أنه لا يرد الحوض ولا يحظى بشفاعة النبي ﷺ وقد قال محذرًا: «أنا فرطكم على الحوض، ليرفعن رجال منكم حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا

---

(1) (صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، وما يتخلف عن الصلاة إلا...، رقم الحديث: 654).

(2) (سورة الكهف، الآية: 103 - 104).

(3) (سبق تخريجه).

(4) (أخرجه الطبراني والترمذي).

دوني فأقول: أي رب، أصحابي، فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك»[1]. وفي رواية: «إنك لا تدري ما بدلوا بعدك، فأقول: سحقًا لمن بدّل بعدي».

- صاحب البدعة عليه إثم من عمل ببدعته إلى يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[2]. وقال ﷺ: «ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[3].

- صاحب كل بدعة ملعون؛ لقوله ﷺ: «من أحدث فيها أو آوى محدثًا؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل»[4].

- صاحب كل بدعة لا يزداد من الله إلا بعدًا، وقد وصف الله الخوارج فقال عنهم: «تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم وعملكم مع عملهم ويقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من البرية»[5].

---

(1) (صحيح البخاري، كتاب الفتن، أنا على حوضي أنتظر من يرد علي، رقم الحديث: 6642).
(2) (سورة النحل، الآية: 25).
(3) (صحيح مسلم، كتاب الزكاة، اتقوا النار، رقم الحديث: 1017).
(4) (صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، حرم ما بين لابَتي المدينة على لساني، رقم الحديث: 1771).
(5) (صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، يأتي في آخر الزمان قوم..، رقم الحديث: 4771).

وأنت أيها المسلم، ماذا يجب عليك تجاه البدعة؟

قد علمنا خطر البدعة وأنها شر وأيّ شر، فضررها يلاحق صاحبها في حياته فهو ليس بأمين على دين الله وهو يدعو إلى ضلالة، متبع لهواه بعد أن وقع في فخ من فخاخ الشيطان الذي اصطاده بسلاح حادّ من أسلحته الفتاكة وهو البدعة، قد يكون عن نية حسنة أو عن جهل، وقد يكون لشهرة ومصلحة مهما كانت فإثمها يلاحقه في حياته، وبعد مماته يجري عليه لأنه أثر تركه، ذلك إن لم يتب منها ويتبرأ قبل موته ويعلن توبته على الملأ، ويصحح ما ابتدعه ليقلع عن بدعته من تبعه فيها.

إن علينا جميعًا عندما نقبل على أي عمل نتقرب به إلى الله أن نعرضه على كتابه وسنة رسوله الأمين ﷺ الذي ما كتم عنا منها شيئًا، وأن نزنه بميزان الشرع ونسأل علماءنا الأجلّاء فيما التبس علينا أو خفي من أمور الدين مما في القرآن الكريم والسنة المطهرة؛ لأنهم أهل الذكر، والله تعالى يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1]. كما يجب ألا ننقاد وراء أصحاب البدع والأهواء، وأن ندعوهم إلى السنة وننصحهم ونحذر من اتباع بدعتهم، فكم من الأعمال الكثير مما يوافق الكتاب والسنة ما يدعونا للبعد عن أي بدعة ولو كان ظاهرها الخير، وكم من أناس تعبدوا الله بغير ما شرع فما كان سعيهم مشكورًا. فتمسك بالحق والسنة وإن قلّ المتمسكون

(1) (سورة النحل، الآية: 43).

تكن من الفائزين. وقد سئل الإمام علي رضي الله عنه: (مَن أهل السنة؟ ومَن أهل البدعة؟ فقال: أما أهل السنة المتمسكون بما سنه الله لهم ورسوله وإن قلوا وإن قلوا، وأما أهل البدعة فالمخالفون لأمر الله ولكتابه ورسوله، العاملون برأيهم وأهوائهم وإن كثروا)[1]. وفي الحديث: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وأنفق مالًا كسبه في غير معصية، وخالط أهل الفقه والحكمة، وجانب أهل الذل والمعصية، طوبى لمن ذل في نفسه، وحسنت خليقته، وصلحت سريرته، وعزل عن الناس شره، طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووسعته السنة، ولم يعدها إلى البدعة»[2].

(1) (كنز العمال، للمتقي الهندي)

(2) (رواه البيهقي في شعب الإيمان).

obeikandl.com

(7)
الهجرة من الاستضعاف إلى التمكين

لقد كان في هجرة النبي ﷺ ولادة أمة، وحياة وقوة، ونصر وعزة، وظهور وتمكين، وذلة للمشركين وصَغار، وها هم أولاء ينفضون عن رؤوسهم التراب بعد أن خرج النبي ﷺ من بينهم وهو يذره على رءوسهم فلم يبق من المتآمرين رجل إلا وعلى رأسه شيء منه.. إنه تراب العار والذل والهزيمة لمن أَبَى الخضوع والانقياد لله ورسوله.

إن ولادة أي مخلوق في هذا الكون ووجوده لا بد أن يمرّ بمراحل عدة يخطوها مرحلة إثر أخرى حتى يقوَى ويستوي قائمًا ويصبح له كيان خاص به، ووجود على وجه الأرض، وتلك البداية لا بدّ منها في حياة الأمم، وهي أول الطريق لا يتخطاها أحد ولا يتعداها مخلوق، فالكلّ يولد صغيرًا ثم يكبر شيئًا فشيئًا ترعاه عين الله وتحرسه عناية الرحمن التي لا تخطئ ولا تغيب. أما نظرت يومًا إلى بذرة صغيرة لا حول لها ولا قوة ألقيتْ في حقل شاسع وأرض ميتة فأنبتها الرحمن سبحانه الذي يقول للشيئ كن فيكون؛ فصارت بستانًا زاخرًا بكل ما تشتهي النفوس وتحب، بعد أن تعهدتها يدُ الإنسان بالريّ والرعاية أخذًا بالأسباب وأحاطتها بسياج من الحماية والوقاية خوفًا من الأمراض.

هكذا نشأت الأمة المحمدية أمة الإسلام العظيمة، نشأت ووُلدتْ يوم أن بذر بذرتها رسول الله ﷺ وصنع أفرادها من الرعيل الأول على يديه، وربّاهم في مدرسة النبوة الراقية على منهج فريد لا مثيل له في مناهج البشر، منهج فيه ما يقوّي الجسد ويزكي الروح، ويصل ذلك الإنسان الفقير الضعيف بواهب القوة والغِنى القويّ الوهاب. تعهدها معلمها الأعظم وأستاذها النابغة ﷺ وأخذها بالتربية على أسس ودعائم لا تبلى مع اختلاف الأزمنة؛ لأنها مستمدة من كتاب الله الخالد ومن الوحي العظيم، لكنها لم توجد هكذا فجأة بل كان لوجودها ثمن عظيم دفعه إخواننا من أصحاب رسول الله ﷺ غاليًا من أموالهم وأوقاتهم وراحتهم، بل ومن دمائهم الزكية! مع قائدهم العظيم ﷺ الذي سبقهم كلهم في ذلك.

المراحل التي مرت بها الدعوة الإسلامية قبل الهجرة النبوية

ولقد مرت الدعوة الإسلامية بمراحل عدة، كان فيها لكل مرحلة ما يميزها، منها ما كان في السرّ ومنها ما كان في العلن، ومنها ما كان قبل الهجرة ومنها ما كان بعدها، وكما أن لكل وقت طريقته في الدعوة وأساليبه المناسبة لأهله؛ كان لكل مرحلة منها طريقتها الخاصة بها، مضافة إلى تضحيات ومطالب قد تختلف هي الأخرى من واحدة لأخرى. بَيْدَ أن بعض هذه المراحل قد مرت بأوقات من الضعف والاستضعاف أكثر من بعضها الآخر حتى تخطت المحنة وخرجت منها بفضل الله بسلام، لكن

الذي لا يختلف فيه أحد أن الدعوة في كل أوقاتها ومراحلها تطلبتْ عظيمَ صبر وكثيرَ جهد.

المرحلة الأولى: مرحلة الدعوة السرية

واستمرت ثلاث سنوات، وكانت حصيلتها في هذه الفترة ما يقارب أربعين رجلًا وامرأة، دخلوا في الإسلام، عامتهم من الفقراء والأرقاء وممن لا شأن لهم في قريش. وفي بداية هذه المرحلة كان المؤمنون يلتقون برسول الله ﷺ سرًّا، وإذا أراد أحدهم ممارسة عبادة من العبادات ذهب إلى شعاب مكة يستخفي عن أنظار قريش[1].

ولو تخيلتَ نفسك في تلك المرحلة لوجدتَ الأمر غاية في الصعوبة؛ إذ ليس أصعب من أن يكتم الإنسان مشاعره ويخفي عقيدته ويخبئها في صدره؛ خشية أن تُسرَق منه رغمًا عنه أو تتعرض للضياع! لذا فقد كانت مرحلة حرجة على أصحابها من المسلمين الأوائل الذين استحقوا أن يكونوا من السابقين، وممن بذروا بذرة الأمة والدعوة إليها مع رسول الله ﷺ وكفاهم ذلك شرفًا وفخرًا. ولذلك لما بدت التباشير وبدأت البذرة في الإنبات أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يجهر بالدعوة لتظهر تلك البذرة على الملأ وتكبر رغمًا عنهم، وإن حاولوا أن يمنعوا عنها الماء والشمس

(1) (انظر فقه السيرة النبوية للبوطي).

والهواء.. قال تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[1]، فانتقلت الدعوة بذلك إلى المرحلة الثانية.

المرحلة الثانية: مرحلة إعلان الدعوة في أهل مكة

وكانت من بداية السنة الرابعة من النبوة إلى أواخر السنة العاشرة كما ورد في كتب السيرة، وفيها جهر النبي ﷺ بالدعوة إلى الله عز وجل لا يريد على ذلك أجرًا من أحد من البشر، إنما يبلغ رسالة ربه كما أمره، لكنه لاقى عنتًا كثيرًا من قومه الذين كانوا أبعد الناس عن قبولها، وقد كان الأوْلى بأهل مكة عامة وبقريش خاصة أن يسارعوا لاحتضان دعوة النبي الصادق الأمين الذي ما جربوا عليه كذبًا قط، ولو عقلوا لعلموا أن من يصدق مع البشر لا يجرؤ على الكذب على الله، ولو أنصفوا أنفسهم لاستجابوا له وإلا وقفوا منه محايدين كما قال عتبة بن أبي ربيعة لهم ناصحًا: يا معشر قريش، أطيعوني وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم. لكنهم لم يسمعوا حتى لعتبة، وقد كان مشركًا مثلهم وكبيرًا فيهم، ويبدو أنهم استساغوا العناد واستمرءوا التكذيب وأحبُّوا الظهور بصورة المنتصر القوي، ولو كان في الحقيقة مغلوبًا لكنه الكبْر والجحود! فكان أن اتخذت قريش أساليبَ شتى

(1) (سورة الحجر، الآية: 94).

لقمع الدعوة وإرهاب المؤمنين وتخويف غيرهم من الدخول تحت لوائها فكانت السخرية والتحقير، والاستهزاء تخذيلًا للمسلمين، وتوهينًا لقواهم المعنوية، فرموا النبي ﷺ بتهم لا تصدق عليه وشتائم هزيلة يتعلق بها المهزوم، فكانوا يتهمونه بالجنون ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[1]، ويصفونه بالسحر والكذب، كما قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾[2]، ويشيعونه ويستقبلونه بنظرات ملتهمة ناقمة، وعواطف منفعلة هائجة.. ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾[3]. كما حاولوا تشويه تعاليمه وإثارة الشبهات حوله وبث الدعايات الكاذبة للتضليل وإثارة البلبلة، فقالوا عن القرآن ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[4]، ويبدو أن تلك الاتهامات وسيلة شيطانية في كل زمان للفت الأنظار والتشويه على الحق بإحداث اللغط من حوله وبث الشكوك في النفوس الضعيفة.

كان ردّ الفعل من المشركين أمام دخول الدعوة مرحلة العلن ردًّا قاسيًا عنيفًا، إذ جُن جنون كبرائهم حتى بلغ بعَمه أبي لهب أن يقول لبني هاشم محرضًا إياهم على النبي ﷺ (خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم).

(1) (سورة الحجر، الآية: 6).
(2) (سورة ص، الآية: 4).
(3) (سورة القلم، الآية: 51).
(4) (سورة الفرقان، الآية: 5).

ولم يشبع غرور هؤلاء ويثبت وجودهم إلا محاربة تلك الدعوة واستضعاف أهلها وإن كانوا قلة، وتعذيبهم ولو أدى إلى قتلهم، وجعلهم عبرة للصدّ عن سبيلها ولو تطلّب ذلك التخلص منهم وإبادتهم، ومن هنا كان الأذى والإهانة، والتجويع والحصار والمقاطعة التامة التي استمرت ثلاث سنوات، مرّ فيها المسلمون بحالة استضعاف تامة استهدفت قلوبهم المؤمنة لتكفر، وأنفسهم العزيزة لتذلّ، وأبدانهم الصابرة لتضعف، كان الاستضعاف لهم ولأولادهم وأزواجهم، وكان الابتلاء والتمحيص الذي يأتي دائمًا بعده المخرج والفرج.

الاستضعاف

إن المتفكر في تلك الفترة العصيبة في حياة المسلمين الأوائل مع بداية الدعوة الإسلامية يرى عجبًا، فالدعوة للإسلام كانت محظورة لكنها للات والعزى ومناة وهبل مفتوحة على مصراعيها! والدعوة إلى حرية العبادة مكفولة، فلكل صنمه الخاص به وكذا لكل قبيلة، لكنها لعبادة الله وحده ونبذ الأصنام في شرعتهم غير مقبولة! ألا وإن من حضارة الشعوب أن يُترك لكل إنسان حرية اختيار عقيدته وأن لا يُكرَه أحد من أفرادها على اعتناق دين بعينه ولو كان مقيمًا على باطل، وقد جاءت بذلك دعوة الإسلام العظيم؛ إذ يقول الله تعالى في كتابه الكريم ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ فلم يحدث أن أكره المسلمون أحدًا على الدخول في الإسلام، صحيح أن الدعوة

للدخول فيه واجبة ومستمرة إلى يوم الدين لتحرير العقول والأهواء من ضلال الكفر إلى هداية الدين الحق، ومن ظلام القلوب بالشرك إلى نورها بالتوحيد، وهي المهمة الأولى للأنبياء والرسل، الذين لم يحدث أن أكرهوا أحدًا على اعتناق دعوة الحق تلك أو فرضوها على الناس، لكن قريشًا لم تكن على هذا القدر من الرقي آنذاك، إذ حاول المشركون أن يكفوا الدعوة عن الظهور والانتشار، ويمنعوا الناس من الدخول فيها، ويفتنوا المؤمنين ليرتدوا عنها، ووضعوا الخطط ودبروا المكائد ليقوموا بذلك العمل تعاونًا منهم على الإثم والعدوان، فاجتمع لذلك رؤوس القوم (وكوّنوا لجنة مكونة من خمسة وعشرين رجلًا من سادات قريش رئيسها أبو لهب عمّ النبي ﷺ، وقررت اللجنة أن لا تألو جهدًا في محاربة الإسلام وإيذاء رسوله، وتعذيب الداخلين فيه، والتعرض لهم بألوان من النكال والإيلام)[1].

صور من التعذيب والإيذاء

من العدل والإنصاف حين يختلف اثنان في قضية ما وتتضارب الأقوال وتتفاوت الأفهام؛ فإن الأوْلى بكلا الطرفين أن يبدءا في فتح باب للحوار والنقاش؛ لمحاولة الوصول إلى الحقيقة وانتزاعها من بين ثنايا الكلام بدلًا من الإصرار على الرأي ولو كان باطلًا، أو تعذيب الخصم ولو كان محقًّا، ولقد حاول رسول الله ﷺ بشتى الطرق مع المشركين حتى يسمعوا له

(1) (انظر الرحيق المختوم للمباركفوري).

ويتعرفوا على ما يدعو إليه فاتحًا لهم باب الحوار على مصراعيه، لكنهم أَبَوْا إلا الصمم، ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾[1]. فكان من أشد صور الأذى للنبي ﷺ ذلك الأذى النفسي بالتكذيب بدعوته، والكفر بنبوته، ومبارزة الله عز وجل بالعصيان المهلك لهم، حتى أنه ﷺ يحزن حزنًا شديدًا خوفًا من بطش الله وبأسه بهم، وطمعًا في هدايتهم التي يتمناها من قلبه الرحيم، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾[2]. وبالتالي تبع هذا التكذيب الأذى البدني له ﷺ ولمن تبعه، فكان أبو لهب وهو عمه يضربه بالحجر حتى يدمي عقباه، وكذا امرأته أم جميل كانت تحمل الشوك وتضعه في طريقه ﷺ وعلى بابه ليلًا. وكان البعض يطرح عليه الأذى وهو يصلي، وغير ذلك كثير مما ذكرته كتب السيرة، لكن الله حفظه منهم وكفاه شرورهم، وقال له: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾[3]، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[4].

اضطهاد أصحاب النبي ﷺ

أما أصحابه - رضوان الله عليهم - فنالوا نصيبهم من أذى المشركين وافيًا، فعثمان بن عفان - رضي الله عنه - كان عمُّه يلفُّه في حصير من أوراق النخيل ثم

(1) (سورة فصلت، الآية: 5).
(2) (سورة الشعراء، الآية: 3).
(3) (سورة الحجر، الآية: 95).
(4) (سورة المائدة، الآية: 67).

يدخنه من تحته، ومصعب بن عمير لما علمت أمه بإسلامه أجاعته وأخرجته من بيته، وكان من أنعم الناس عيشًا فتخشف جلده تخشف الحية، أما بلال بن رباح فكان أمية بن خلف يضع في عنقه حبلًا ثم يسلمه إلى الصبيان يطوفون به في جبال مكة، وتارة يشده شدًّا ثم يضربه بالعصا، أو يكرهه على الجوع والجلوس في حر الشمس في الظهيرة تارة أخرى، ثم يضع على صدره الصخرة العظيمة ويخيره بين الكفر بمحمد أو الموت، فيقول بلال أحد أحد. وكانوا يلفون بعض الصحابة في إهاب الإبل والبقر، ثم يلقونه في حر الرمضاء ويلبسون بعضًا آخر درعًا من الحديد ثم يلقونه على صخرة ملتهبة. كما عذب آل ياسر بحرِّ الرمضاء ورسول الله ﷺ يمر بهم وهم على تلك الحال من العذاب والاستضعاف، فيقول لهم: "صبرًا آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة"، حتى مات ياسر وسمية من شدة التعذيب، وأكره عمار على الكفر بلسانه تحت وطأته. وعذب خباب بن الأرت كذلك، وغيره كثيرون ممن ذاقوا كؤوس العذاب في سبيل إسلامهم فثبتهم الله، حتى النساء والإماء الضعيفات مثل زنيرة والنهدية وابنتها وأم عبيس اللاتي أسلمن لم يسلمن من أذى المشركين إذ كانوا يسومونهن من العذاب ما لا يطاق[1].

وهكذا دخل هؤلاء المشركون صفحة من صفحات التاريخ، لكنها قاتمة السواد مكتوبة بمداد الظلم الأسود، إذ أذاقوا المسلمين من العذاب ما لا تطيقه الجبال الرواسي، وكأن لهم مدارس خاصة يدرسون فيها أصول التعذيب وفنونه

(1) (الرحيق المختوم للمباركفوري بتصرف).

وأساليبه وطرقه، ويطورونه من حال لحال، لكن الله تعالى كان لهم بالمرصاد فأبطل كيدهم وأمد المسلمين بالقوة الروحية التي تزيد بذكره كما كان من بلال، وجعل لهم فرجًا ومخرجًا بالهجرة إليه حيث الأمن والأمان والعزة والتمكين.

المرحلة الثالثة: مرحلة الدعوة خارج مكة

وتذكر كتب السيرة أنها كانت من أواخر السنة العاشرة من النبوة إلى هجرته ﷺ إلى المدينة. ولم تكن تلك المرحلة بأقل مما سبقها إذ نال ﷺ فيها من الأذى أيضًا ما نال، ولكن من خارج مكة! فقد خرج في شوال سنة عشر من النبوة إلى الطائف مشيًا على قدميه ذهابًا وإيابًا، وهي تبعد عن مكة نحو ستين ميلًا ومعه مولاه زيد بن حارثة، وكان - عليه الصلاة والسلام - كلما مرَّ على قبيلة في الطريق دعاها إلى الإسلام فلم تجب إليه واحدة منها. وأقام بين أهل الطائف عشرة أيام لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، لكنهم ردوه ردًّا منكرًا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يرمونه بالحجارة حتى اختضبت قدماه الشريفتان بالدماء، فرجع إلى مكة مرة ثانية ودخلها في جوار المطعم بن عدي الذي كان مشركًا.

وظل رسول الله ﷺ في مكة يدعو القبائل والأفراد خاصة في مواسم الحج حتى منّ الله تعالى على الأنصار بالإيمان به، فكانت البشارة بالعزة والمنعة والنصر والتمكين، وأمر الله تعالى نبيه بالهجرة إليهم في يثرب، فهاجر بعد أن هاجر أصحابه ممن آمنوا به، وبذلك انتقل المسلمون إلى

مرحلة جديدة من مراحل الدعوة الإسلامية، لكنها أحدثت في النهاية تحولًا كبيرًا لهم فانتقلوا من حال الضعف إلى القوة بعد أن صار لهم وطن يسكنونه، ودولة يقيمون بها، ومنهج يسيرون عليه، وشريعة يحتكمون إليها، وأمة ينتمون لها جميعًا بلا فوارق أو طبقات، وقد استغرق ذلك زمنًا وجهدًا وتضحية وإيثارًا منهم جميعًا، لكنهم قطفوا ثمرة جهادهم الطويل ولا زالوا يقطفونها ويصلهم أجرها وثوابها كلما صلى لله مصلٍّ، أو تعبد لله عابد، فقد كانت آخر المراحل التي مرت بها الدعوة الإسلامية في زمن النبي ﷺ مرحلة دخول الناس في دين الله أفواجًا بعد فتح مكة.

قال ابن إسحق[1]:

(لما افتتح رسول الله - صلى الله عليه - مكة وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه، وإنما كانت العرب تتربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش، إذ كانوا إمام الناس وأهل البيت والحرم، وصريح ولد إسماعيل عليه السلام وقادة العرب. فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودوّخها الإسلام، عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عدوانه، فدخلوا في دين الله تعالى أفواجًا كما قال تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾[2].

(1) (انظر السيرة النبوية لابن هشام).

(2) (سورة النصر).

ويقول الشيخ الغزالي معقبًا على تلك المرحلة العظيمة: بعد كم بلغ النبي ﷺ هذه المرحلة؟ بعد اثنين وعشرين سنة من الدعاية الحثيثة، والتذكير الدائم، وتحمل الأذى، وكفاح العدوان[1].

إنه درس بليغ.. لكل الناس

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ .. ﴾[2].

أرأيتَ كيف سارت الدعوة وكيف بدأت وإلى أين انتهت؟ كلا بل لم تنته بعد، (فقد استمرت الدعوة الإسلامية في زمن الخلفاء الراشدين تبليغًا للإسلام وتعليمًا له وتطبيقًا لأحكامه في حياة المسلمين حتى توسعت دائرة انتشار الإسلام توسعًا كبيرًا وامتدت رقعة الدولة الإسلامية..... ثم تابعت انتشارها وامتداداها جغرافيًّا وفكريًّا على السواء، فكان المسلمون يفتحون كل يوم أرضًا جديدة، فيعقبهم العلماء بالفقه والتشريع والحديث والتفسير يشرحون الإسلام ويعلمون الناس قضاياه، فدخلوا فيه عن رضًا وطواعية وحب. ولم تتوقف حركة الدعوة إلى عصرنا هذا)[3].

---

(1) (فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي).

(2) (سورة النور، الآية: 55).

(3) (انظر المدخل إلى علم الدعوة للبيانوني ص90، 97).

إن لنا في ذلك المثل والعبرة، فلا يغرنك علوّ الباطل وإن نفش ريشه في دنيا الزوال فهو مثلها إلى زوال واندثار، قضى بذلك الملك العدل الجبار، فلئن مالت الراية بنا ساعة فقد ارتفعت وخفقت ساعات وستعود لترفرف وتعلو من جديد، ولئن قويت شوكة المبطلين والمرجفين من حولنا في لحظات ثقيلة ثقل الجبال؛ فقد زحزحتها من قبل وأزالتها قوة الرجال، ولئن تأخر النصر وطال به الأمد؛ فقد كافح نبينا ﷺ سنوات طوال حتى علا صوت الحق وملأ نوره الآفاق. فلنطرح اليأس جانبًا، وليبدأ كلٌّ منَّا من الآن إن أردنا تمكينًا وعزًّا، ليغيرْ كلٌّ منَّا ما بنفسه ويأخذها إلى الأصلح والأقوم، وليقم بتزكيتها وتربيتها على ما يدعو إليه ديننا القويم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]، ولنثق بموعود الله لنا، فقد قال رسول الله ﷺ مبشرًا: «ليبلغن هذا الأمر مبلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، يعز بعز الله في الإسلام ويذل به في الكفر»[2].

فلا بد إذًا من نصر آت في يوم لا ريب فيه كما وعد ربنا سبحانه وقال: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾[3].

(1) (سورة الرعد، الآية: 11).

(2) (رواه الحاكم في مستدركه، وقال صحيح على شرط الشيخين).

(3) (سورة الروم، الآيات: 4 – 6).

(8)
الهجرة من العزلة إلى الانفتاح والدعوة

لم تكن الهجرة بالنسبة للمسلمين مجرد انتقال من مكان إلى مكان، ولا طلبًا للأمن أو فرارًا بالنفس فحسب، بل كان لها أبعاد أخرى كثيرة، ونتائج إيجابية عظيمة حوّلتها من محنة إلى منحة، فمن البعد عن الوطن الأمّ إلى القرب من الله ورسوله في وطن جديد، ومن ترك الإخوَة والعشيرة إلى الأخوّة الصادقة في الله؛ حيث الأنصار وإيثارهم الكبير، ومن خسارة أموالهم التي يحبون إلى حُب الآخرة وابتغاء الربح فيها، ومن التجارة مع الناس إلى التجارة مع رب الناس، ومن التعلق بأسباب العيش إلى التوكل على خالق الأسباب ومسببها والأخذ بها أيضًا للعون على تحصيله، فكانت الهجرة كمُزنة حُبلَى مباركة تحمل رغم ثقلها ماء الحياة، وكسحابة سوداء طيبة تحمل مع سوادها الغيث والرحمة، إذ استطاع المسلمون أن يلتقطوا أنفاسهم استعدادًا للسباق الطويل والتنافس الشريف في رياضة الإيمان العظيمة التي تؤهلهم لأداء دورهم الرفيع المُناط بهم، بعد أن هجروا الكفر إلى الإيمان، والجهل إلى العلم، والمعصية إلى الطاعة، والفرقة إلى الوحدة، والبدعة إلى السنة، والاستضعاف إلى القوة والتمكين.

كما كان لهجرتهم أيضًا بُعدٌ آخر عظيم لا يقل أهمية عما سبق، وكم نحن كلنا بحاجة إليه في عصرنا هذا لنشر دعوة الله وإقامتها في القلوب والعقول، ألا وهو الهجرة من العزلة والاستكانة إلى الانفتاح والدعوة؛ حيث رسالة البلاغ التي من أجلها أرسِل رسول الله ﷺ، لذا فإن الخير بكل مقاييسه كان في الهجرة من مكة إلى المدينة وإن بدتْ وقتها للناس رأي العين أنها مجرد تركٍ للديار أو هروبٍ وفرار.

رسولٌ للناس كافة.. ورحمة للعالمين

قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[1]. وأمره أن يعلنها على الملأ في دعوته فقال له: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾[2]. وها هو ﷺ يقول: «بعثني الله رحمة وهدى للعالمين»[3]. ويقول: «وبعثت إلى الناس كافة»[4].

وحينما بُعث رسول الله ﷺ كان يدعو إلى الله سرًّا، وكان أول من آمن به من الرجال صديقه الحميم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، والذي

---

(1) (سورة سبأ، الآية: 28).

(2) (سورة الأعراف، الآية: 158).

(3) (البيهقي في شعب الإيمان، وقال له شواهد يأخذ بها قوة).

(4) (صحيح البخاري، كتاب الصلاة، أبواب استقبال القبلة، باب قول النبي ﷺ جعلت لي الأرض..، رقم الحديث: 427).

حمل على عاتقه منذ اللحظة الأولى التي أسلم فيها همّ الدعوة، فنشط فيها حتى آمن على يديه عثمان بن عفان والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم. وأسلم بعدهم عدد من جميع بطون قريش حتى صاروا أكثر من أربعين نفرٍ، أسلم هؤلاء سرًّا، وكان النبي ﷺ يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين متخفيًا؛ لأن الدعوة كانت لا تزال فردية وسرية، حتى أمره الله تعالى بالجهر بها فجهر، لكنها لم تكن لتجد طريقها بسهولة وسط محاربة المشركين لكل من يعتنق الدين الجديد أو يدعو إليه.

دين عالمي.. ودعوة عالمية

وإذا كان المسلم قبل الهجرة يخشى من إظهار دينه حتى لا يعرّض نفسه للعنت والمشقة، أوالتعذيب والهلاك، أو الفتنة والردّة؛ فأنَّى له أن يدعو الناس إليه، إن هذا ليس بالأمر الهين أو السهل؛ لذا فقد وجد المسلمون بعدها في أرض الهجرة الطيبة مجالًا خصبًا للدعوة إلى الله، ففيها قلوب لينة وآذان صاغية ونفوس عالية، وإن ذلك والله لهو المنبت الحق المناسب لتلك الدعوة، والمأوى الآمن لهذا الدين وأهله، بصحبة نبيهم الداعية الأول ﷺ، حيث صار أهلها من الأنصار والمهاجرين خير الناس بخير الصحبة ورضا الله تعالى عنهم. وغدَتْ المدينة المنورة مكانًا للانطلاق باسم الله وفي سبيل الله لكل داعية إليه آنذاك، يخرج نورها إلى الآفاق مخترقًا الحواجز والحدود ليفتح العقول والقلوب،

وها هو نبي الله ﷺ يفتح لدعوته آفاقًا أخرى جديدة ليصل صوتها حول العالم، ويقرأ رسالته ملوك الأرض وحكامها ومَن لهم الكلمة في شعوبهم، ليحقق بهذا العمل العظيم عالمية هذا الدين وصلاحيته لكل الناس على اختلاف ألسنتهم وأجناسهم ومستوياتهم وطبقاتهم. (ففي غرة محرم في السنة السابعة من الهجرة؛ كتب النبي ﷺ إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، واختار من أصحابه رسلًا لهم معرفة وخبرة فكتب كتابه إلى النجاشي ملك الحبشة، وإلى المقوقس ملك مصر، وإلى كسرى ملك فارس، وقيصر ملك الروم، والمنذر بن ساوي حاكم البحرين، وإلى هوذة بن علي صاحب اليمامة، والحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق، وإلى ملك عمان، يدعوهم جميعًا فيها إلى الإسلام)[1]، ولم يكن ليتيسر فعل ذلك للنبي ﷺ قبل الهجرة والتمكين للمسلمين من قيام دولتهم في المدينة، وما كان لهذا النور أن ينبثق حول العالم وسط اضطهاد المشركين بمكة للرسالة وصاحبها عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وما كان للكلمات الحبيسة في صدور المستضعفين من أصحابه أن تخرج وهي رهن الحبس والسجن والمصادرة؛ أما الآن - فكما ذكر المباركفوري - فقد أبلغ النبي ﷺ دعوته بهذه الكتب إلى أكثر ملوك الأرض فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، ولكن شغل فكرة هؤلاء الكافرين، وعرف لديهم باسمه ودينه.

(1) (الرحيق المختوم للمباركفوري بتصرف).

منهج الدعوة إلى الله كما علمنا رسول الله ﷺ

لقد بيّن النبي ﷺ لأصحابه أن أمر الدعوة إلى الله ليست مهمته وحده، وإنما عليهم أن يتبعوه في هذا العمل العظيم ويقتدوا به، بل إنه وضع لهم أصول الدعوة وعلمهم المنهج القويم في كيفية ممارستها، فتخرّج في مدرسته المميزة دعاة وأيّ دعاة! وها هو يرسلهم لدعوة الناس وتعليمهم مبادئ الإسلام بعد أن انتشر في ربوع الأرض وصار له كيان ووجود. فأرسل خالد بن الوليد إلى نجران ليدعو من هناك إلى الإسلام ويعلمهم مبادئه وأحكامه، كما أرسل عليًّا - رضي الله عنه - إلى اليمن، وأرسل أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن أيضًا، بثّ كلا منهما إلى طرف من أطرافها، ووصاهما قائلًا: «يسّرا ولا تعسّرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا»[1] وقال لمعاذ: «إنك ستأتي قوما أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»[2].

---

(1) (صحيح البخاري، كتاب المغازي، كل مسكر حرام، رقم الحديث: 4088).

(2) (صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، رقم الحديث: 1425).

اعرف دينك.. وعرّف الناس عليه

لقد بدأت الأمة الإسلامية ونشأت على أكتاف رجال عرفوا المطلوب منهم، فلم يتّكل كل واحد منهم على أخيه بُغية الراحة فيضيع العمل بينهما وتضعف الدعوة أو ينضب معينها، بل إن كل فرد من أفرادها عرف أن هذا الدين هو دين الحق وأن الدعوة إليه واجبة على الجميع، كل بما يستطيع؛ فالطرق الموصلة إلى الغاية متعددة كثيرة، أما الغاية فهي واحدة ألا وهي التعريف بالحق والتمكين لدين الله أن ينتشر ويسُود. لقد دعا النبي ﷺ وأصحابه إلى الله بكل السبل الممكنة وقتئذ، دعَوا إليه بالكلمة الطيبة، وبالقدوة الحسنة، وبالمجادلة بالتي هي أحسن، دعَوا إليه على علم وبصيرة، بشَّروا ولم ينفروا، عملوا بما دعوا الناس إليه، استغنوا عما في أيدي الناس بما عند الله من ثواب وأجر، وصبروا على الأذى ولم يضعفوا، قاتلوا في سبيل الله ولم يعتدوا، وكانوا على ثقة من صحة الطريق ويقين من مجيء النصر ولو تأخر بعض الوقت.

إنه درس لي ولك ولكل مسلم وداعية، بل ولكل الناس من أهل الحق وغيرهم، إذ ما ينبغي أن تمر الأحداث بلا عبرة ولا فائدة؛ فدراسة سيرة النبي ﷺ ليست كغيرها، وإنما هي للاتباع والعمل والاقتداء وتقفي الأثر.

الدعوة إلى الله تعالى في ظل العولمة والانفتاح

والآن، بعد أن أصبح العالم قرية صغيرة مفتوحة ومكشوفة، يستطيع أي إنسان أن يتجول في طرقاتها من خلال شبكات الاتصال الميسرة المبثوثة في كل مكان والتي تجدها في كل بيت، وفي كل غرفة، بل وفي كل جَيْب!؛ صار دور العلماء والدعاة إلى الله أصعب، ومسئوليتهم في الدعوة أعظم وجهدهم المطلوب أكبر! والدعوة عبر هذه الوسيلة صالحة لإيصال صوت الحق لمن لا تستطيع الذهاب إليه أو لقاءه عبر العالم كله، ومع ذلك فإنها تحتاج إلى مزيد جهد وتنقيح وتنقية لما يكون فيها من مواد قد تُنشر للتضليل والتثبيط، أو للكيد والصدّ عن دين الله، أو التعرض له في شخص نبينا الكريم ﷺ، وقد تكون عن جهل وقلة علم، إذ ليس كل ما يكتب أو يُقال ويُبث صحيحًا بالضرورة، ومن هنا، كان لا بد من مواكبة هذا التطور واستخدامه كوسيلة فعالة للتعريف بالإسلام وكشف القناع عن الصور الملوثة التي يصورها عنه أعداؤه الحاقدون، كما لا بد أن يكون لها دور في دحض شبهات وحجج المبطلين والمرجفين وإزالتها. والحمد لله تعالى إذ يوجد الآن مواقع إسلامية عدة موثوقة، يدخلها مَن يرغب على شبكات الإنترنت لكنها مع ذلك لا تعادل قطرة من بحر الغثاء المعروض على العالم، أضف إلى ذلك خطورة ذلك الانفتاح السلبي على الشباب المسلم ما لم يكن لديهم قاعدة صلبة من المبادئ والقيم الإسلامية

الأصيلة يرتكزون عليها ويحتمون بها، وهذا أيضًا واجبٌ مهمٌّ من واجبات علماء الأمة الأفاضل، تتطلب الدعوة منهم للقيام به مواكبة التقدم التقني في وسائلها من حيث تطورها وتنوعها واستخدام كل الطرق التي تخدمها وتخدم المدعوّ، وعدم الجمود بها في حيز ضيق الأفق، وكل ذلك لا بد وأن يكون تحت ميزان الشرع وما يوافقه.

نعم للانفتاح الإيجابي على العالم بلا ذوبان

ويُقصد به التعرف على العالم من حولنا وعادات شعوبه ولغاتهم وما يفكرون فيه ويدعون إليه، ومشاكلهم التي يمرون بها، وكل ذلك يصُبّ في خدمة الدعوة إلى الله تعالى. إن نبي الله ﷺ كاتَبَ الملوك وراسلهم في بلادهم، خاطبهم في رسائله وهو يعرف مَن يخاطِب وكيف يخاطبه ويدعوه إلى الله، وكذلك بث أصحابه في الأرض لتعريف غير المسلمين بالإسلام، ولتعليم المسلمين أحكامه ومبادئه، كان ذلك منه تحركًا بالدعوة وعدم حصرها في مكان واحد أو أناس بعينهم؛ لأن دعوة الإسلام لا تعرف الانعزال ولا الجمود؛ فذلك يتنافى مع كونها دعوة عالمية، وقد يتطلب ذلك من الداعية فراق الأهل والوطن للتحرك بالدعوة وخاصة في هذا الزمان الذي تيسرت فيه وسائل التنقل، فهذا معاذ - رضي الله عنه - يستجيب لأمر رسول الله ﷺ حين بعثه إلى اليمن وقد قُبض رسول الله ﷺ ولا زال معاذ بها داعيًا ومعلمًا، ففي صحيح ابن حبان: لما بعثه رسول الله ﷺ

إلى اليمن، خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه - معاذ راكب ورسول الله ﷺ تحت راحلته- ؛ فلما فرغ قال: «يا معاذ، إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا! لعلك أن تمرَّ بمسجدي وقبري» فبكى معاذ خَشَعًا لفراق رسول الله ﷺ.

وكأنه ﷺ يعلمنا الدرس؛ فليس للدعوة مكان يحدّها ولا زمان يوقفها، فهي تسير وتنطلق في أرض الله الواسعة، وهي في كل وقت قائمة وواجبة إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، لأن مادة حياة الدعوة دين الله الخالد وشرعه العظيم[1].

لا تتكاسل.. إنها فرصة للحياة

وهذه رسالة.. نقدمها لأنفسنا أولًا، ثم لكل مَن له علينا حق في الله، وهي دعوة خاصة لمزيد من الحياة، إنها إلى الرجل مع أهله، والأم مع أولادها، إلى المعلم في مدرسته والتلميذ في فصله، إلى التاجر في متجره، والعامل في مصنعه، إلى الطبيب في مشفاه، والمهندس في مبناه، نقدمها لكل زوج وزوجة، وأم وأب، وكل راع ومسؤول على هذه الأرض، أن هلمّ إلى العمل ولا تتكاسل، واستعِدْ دورك الرفيع في هذه الحياة، بالاستجابة لنداء الحبيب ﷺ : «بلغوا عني ولو آية»[2]. وها هو نبينا قد بلغ وأنذر وقال «اللهم هل بلغت؟ اللهم اشهد»؛ فكان البلاغ أعظم ما يكون منه ﷺ،

(1) (صحيح ابن حبان، رقم الحديث: 647).
(2) (سبق تخريجه).

فهل وَعَيْنا تبليغه ووصلت الرسالة النبوية إلينا؟ وهل سِرْنا من ورائه نبشّر به وندعو إليه؛ إذ نحن أوْلى الأمم بهذا التبشير؟

ابدأ بنفسك أولاً

هيا انفُض من قلبك حب الهوى وعبودية الأنا؛ لتكون أهلًا لحمل الرسالة إلى الناس، والقيام بالأمر النبوي «بلغوا عني ولو آية». ولمَ لا تحاول وهي مهمة أشرف الخلق أجمعين عليه الصلاة والسلام، ومهمة العلماء المخلصين، والدعاة العاملين، وكل مسلم غيور يبغي الصلاح لدينه ودنياه، فيا لها من مهمة عظيمة تحتاج إلى عظيم زاد، ويا لعظم دورها لو قمنا بها حق القيام، وما أكبر أثرها ونتائجها لو كان لها رجال! وكأني بحبيبنا ﷺ وهو معنا وبين أظهرنا أنظر إليه بعين قلبي - فداه المهج والأرواح - وقد ارتقى درجات منبره الشريف وهو يتطلع بنظره في حب ورحمة إلى الوجوه المنهكة بالسعي والكدح، ويتفحص بقلبه المعصوم وفراسته الصائبة في شفقة ورأفة تلك النفوس المثقلة بأحمال الخطايا والأوزار، فيهيب بنا جميعًا أن ننفض من قلوبنا حب الهوى وعبودية الأنا والذات، وأن ننهج نهجه ونقتفي أثره في الدعوة إلى الله، وها هو يدعونا جميعًا على اختلاف الطبقات والمستويات، كلّ في مكانه، رجلًا كان المدعو أو امرأة، عالمًا أو متعلمًا، مسافرًا أو مقيمًا، فالدعوة مستمرة إلى يوم الدين، فهل من مجيب؟ إنها دعوة إلى إصلاح الذات ومن بعد ذلك دعوة إلى البلاغ والتبشير والإنذار.

فما عليك إلا أن تبدأ بنفسك، وتكون دائمًا على أهبة الاستعداد لتغييرها إلى الأصلح، والسمو بها إلى الأنفع، لتضعها حيث أراد الله لها واختار من الخيرية التي فضلت بها، والوسطية التي اختصت بها بعيدًا عن الغلوّ والتفريط، وذلك بالانضمام إلى تلك الأمة العظيمة التي لا ولن تموت وإن طال الأمد لأنها الأمة الوسط التي تُدعَى للشهادة على الناس، ومن كان شاهدًا على غيره فأنى له أن يأفل أو يغيب؟! قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1] ولن يكون ذلك إلا بالالتزام بدستورها العظيم، ودفع أقساط وافرة من الوفاء والثبات على بنوده مدى الحياة، للعودة إلى معين الفطرة النظيف الطاهر بعد أن شُوّه بأدران المعاصي والذنوب، واختلطت بمادته النقية شوائب الهوى والوهن. ألا تسمع قوله الشريف: «أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس أن يُعبد بأرضكم، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فقد رضي به؛ فاحذروه أيها الناس على دينكم»[2]. فهل أخذت حذرك وتحصنت بالله من الشيطان الرجيم؟ ها هو حبيبك ﷺ يبين لك الطريق؛ فيقول: «تركت فيكم ما إن اعتصمتم به؛ فلن تضلوا أبدًا كتاب الله وسنة نبيه ﷺ»[3]. فهل سلكت طريق النجاة ذاك؟

---

(1) (سورة البقرة، الآية: 143).

(2) (أحكام القرآن، ابن العربي، وصححه)

(3) (المستدرك على الصحيحين، كتاب العلم، خطبته ﷺ في حجة الوداع، ج1، رقم الحديث: 324).

أهم المراجع

أولًا: القرآن الكريم.

ثانيًا: المراجع الورقية:

1 – البدعة وأثرها السيىء في الأمة: للشيخ سليم الهلالي، ط1، 2001م، الدمام، دار ابن القيم.

2 – تهذيب مدارج السالكين للإمام ابن قيم الجوزية، هذبه عبد المنعم صالح العلي العزي، 1981م، القاهرة، المكتبة القيمة.

3 – جامع العلوم والحكم: للشيخ ابن رجب الحنبلي، ط1، 2002م، القاهرة، دار الفجر للتراث.

4 – الداء والدواء، لابن قيم الجوزية، تحقيق عصام الدين الصبابصي، 2004م، القاهرة، دار الحديث.

5 – دراسة في السيرة الدكتور عماد الدين خليل، ط2، 2004 بيروت، دار النفائس.

6 – الرحيق المختوم للشيخ صفي الدين المباركفوري، ط6، 2004م، الرياض، دار السلام للنشر والتوزيع.

obeikandl.com

7 – عظماء الإسلام، لمحمد سعيد مرسي، 2002م، القاهرة، مؤسسة اقرأ.

8 – فقه السيرة الشيخ محمد الغزالي، ط7، القاهرة، دار الكتب الحديثة.

9 – فقه السيرة، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ط11، 1991م، دمشق، دار الفكر.

10 – منتقى حياة الصحابة، الشيخ الكاندهلوي. ترتيب عبد المنعم سكران وعاصم القريوتي، 1993م، دمشق، دار الفيحاء.

11 – مختصر ابن كثير للصابوني، الشيخ محمد علي الصابوني، ط7، 1981م، بيروت، دار القرآن الكريم.

12 – مؤمنات لهن عند الله شأن، تأليف الدكتور محمد بكر إسماعيل، ط1، 2001م، القاهرة، دار المنار.

13 – المدخل إلى علم الدعوة، للدكتور محمد أبو الفتح البيانوني، ط2، 2011م، بيروت، مؤسسة الرسالة.

14 – موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ. إعداد مجموعة من المختصين، 2006م، جدة، دار الوسيلة.

15 – الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف، محمد

obeikandl.com

بن سعيد بن سالم القحطاني، ط3، الرياض، دار طيبة للنشر والتوزيع.

16 – وقفات تربوية مع السيرة النبوية، جمع وترتيب أحمد فريد، ط1، 1993م، الإسكندرية، دار ابن القيم.

ثالثًا: المراجع الالكترونية:

1 – **المكتبة الإسلامية على شبكة إسلام ويب: أخذ منها:**

– تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري، دار المعارف.

– تفسير القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الفكر.

– تفسير ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، دار طيبة، سنة النشر: 2002م.

– التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون.

– تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، دار ابن كثير، سنة النشر 1986م.

– تفسير الكشاف، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، مكتبة العبيكان، سنة النشر 1998 م.

– السيرة النبوية لابن هشام.

– زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (ذكرى الهجرتين الأولى والثانية).

obeikandl.com

- الروض الأنف للسهيلي.
- كشف الخفاء للعجلوني.

2 - موسوعة الحديث، موقع الإسلام الدعوي والإرشادي:

أخذ منها المراجع الآتية:

- صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري. دار ابن كثير، اليمامة، بيروت.
- صحيح مسلم، أبو الحسين محمد بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبوعبد الله القزويني. دار الفكر، بيروت.
- مسند أحمد، أحمد بن حنبل. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2.
- موطأ مالك، مالك بن أنس، ط1، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان.
- سنن الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي، دار الكتاب العربي، بيروت.
- صحيح مسلم بشرح النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

obeikandi.com

- سنن ابن ماجه بشرح السندي، محمد بن عبد الهادي السندي، دار الجيل بيروت.
- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، دار الفكر.
- موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، الشيخ محمد جمال الدين القاسمي، 1995م، دار الكتب العلمية.

3 - المكتبة الوقفية:

أخذ منها:

- التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، ط8، 2000م، ج2.

4 - المكتبة الشاملة:

أخذ منها:

- الرسالة التبوكية، (زاد المهاجر إلى ربه) للإمام ابن القيم تحقيق د. محمد جميل غازي، جدة، مكتبة المدني.

5 - الدرر السنية: ومنها:

- الموسوعة الحديثية.

6 - فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء:

- من الفتوى رقم 2577.

obeikandi.com